سعيد السريحي





17.3.2013

غواية الاسم

سيرة القهوة وخطاب التحريم







سعيد السريحي

غواية الاسم

سيرة القهوة وخطاب التحريم



النادي الأدبي بالرياض

المركز الثقافي العربي

سعيد السريحي

غواية الاسم

غواية الاسم - سيرة القهوة وخطاب التحريم

تأليف: سعيد السريحي

الطبعة الأولى، 2011

ISBN: 978-9953-68-504-5

الناشر:

النادي الأدبي بالرياض

والمركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ هاتف: 303339 522 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ـ هاتف: 352826 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

(في القهوة...
سرٌ وَليّ)

الجزيري - عمدة الصفوة

(وأما القهوة ... فقد بلغنا أن أناسا يشربونها
على هيئة الخمر ويخلطون فيها المسكر
ويغنون عليها بآلة ويرقصون ويسكرون)

مرسوم السلطان قانصوه الغوري

إلى الصديقين. . .
حسين بافقيه
وعبد الله الوشمي
فلولا الأول ما كُتبت هذه الدراسة
ولولا الثاني ما اكتملت

السريحي

المقدمة

استعادة الذاكرة

كنا نمر على عجل حين نحاذي «قهوة العمال» في شارع السيد الذي يقسم حي الرويس بجدة إلى قسمين، نحاذر أن يرانا أحدٌ نبطئ الخطى فيذهب به الظن إلى أننا نهم بدخول المقهى، أو أننا نتوقع أحدا ممن نعرفه، أو لنا به صلة، يقتعد كرسيا في ذلك المقهى.

ولم يكن لنا، في حقيقة الأمر، أن نعرف أحدا من أهل الحي، سواء ممن كانوا مثلنا في مقتبل العمر أم ممن يكبروننا سنا، يقبل على نفسه أن يجلس في ذلك المقهى الذي لم يكن مرتادوه يتجاوزون أولئك الذين حمل اسمهم فهم من فئة العمال الذين طرأوا على الحي حديثا، حين أخذت تظهر فيه البقالات وورش تصليح السيارات، وهم ممن لا تربطهم بالحي وأهله أي روابط يمكن لها أن تفرض عليهم الالتزام بتقاليده المحافظة وقيمه المرعية.

وحين استقطب ذلك المقهى فئةً قليلة من شباب الحي فأصبحوا من مرتاديه اعتبر أهالي الحي ما أقدموا عليه أمرا

معيبا، غير أنه لم يكن مستغربا أن يصدر من تلك الفئة القليلة من الشباب، فهم معروفون لدى أهل الحي بسلوكهم المنحرف ومجاهرتهم بالانسلاخ من القيم المراعاة والتقاليد السائدة التي يمكن لها أن تجعلهم يترفعون عن ارتياد المقهى ويحاذرون أن يتصل بهم عيبُ الجلوس فيه.

لم يكن يحدث في المقهى ما يمكن أن يعد أمرا معيبا يمكن له أن يفسر تلك النظرةَ التي كان أهل الحي ينظرونها إليه، لم يكن يقدم لمرتاديه غير الشاي الذي كان الجلوس بعد الغداء أو العشاء لتناوله جزءا من تقاليد الحياة اليومية في كل بيت من بيوت الحي، أما الشيشة التي كان يطلبها بعض رواده، والتي كان بعض المتدينين في الحي يستكرهها، فلم تكن تختلف عن السجائر المنتشر تدخينها بين رجال الحي والتي لم يكن لها أن تلحق أي عيب بالمتعاطي لها، ولم تكن الأحاديث التي تدور بين رواد المقهى تخرج عن تطارح الهموم اليومية التي تدور في نفس فلك أحاديث أهل الحي أينما اجتمعوا، ورغم ذلك ظل المقهى محاطا بعيب غامض لم يكن أحد قادرا على تقديم علة له، وظل رواده موضع انتقاد لم يكن أحد قادرا على أن يفسره.

كانت قهوة العمال لا تقدم لمرتاديها غير الشاي والشيشة، ولم تكن، رغم أن اسمها قهوة، تقدم لمرتاديها القهوة، مثلها في ذلك مثل بقية المقاهي التي تظهر على قلة داخل الأحياء وتنتشر بكثرة على جوانب الطرقات القادمة إلى المدينة أو

الخارجة منها، ولم يكن أحد يسأل عن أسباب غياب القهوة عن المواقع التي تحمل اسمها، كما لم يكن أحد يسأل عن سبب تلك النظرة التي تجعل الجلوس في المقهى أمرا معيبا يتجنبه الناس، ولا يقدم عليه إلا من ألجأته الظروف فيسرق وقتا مستقطعا يقتعد فيه واحدة من تلك المقاهي البعيدة عن أعين من يمكن أن يراه من أهالي الحي، وغالبا ما تكون من تلك المقاهي الموجودة على مداخل المدينة ومخارجها.

كانت القهوة، وهي الاسم الذي كان يطلق على المقهى، في منزلتها المتدنية المحاطة بنظرة العيب، نقيض القهوة التي خلت منها وغابت عن روادها، على الرغم من أنه لم يكن يخلو بيت من دِلالها وفناجينِها وموقدِ نارها وتقاليدِها العريقة التي تجعل منها عنوانا على الحفاوة بالضيف وتأكيدا على التمسك بالقيم والانتماء للأعراف الاجتماعية .

طوى التاريخُ صفحاتٍ على القهوةِ المكانِ المُشرَب بالريبة، والقهوةِ المشروبِ المتمكن من الأنفس بما له من قيمة، طوى التاريخ صفحاتٍ ملتبسةً وفتح صفحاتٍ جديدةً عادت فيها المقاهي إلى شوارعنا محمولة على عاتق الشركات الكبرى تتباهى بها أسماءَ تعلقها على واجهاتها، كما تتباهى بأنواع ما تقدمه من أصناف القهوة المتباينة في المذاقات تباين ما تمزج به من النكهات، واختلاف ما تتم تهيئتُها به من طرق الإعداد، وانطوى جيلٌ كان يعد الجلوس في المقهى عيبا، وجيلٌ يتخذ من الجلوس في المقهى وسيلة لإعلان التمرد على

المجتمع والخروج عن تقاليده، وجاء جيل أصبح فيه الجلوس في المقهى علامةً على دخولِه روحَ العصر وأخذِه بما يتيحه له من سبل الترفيه عن النفس ، واصطبغت المقاهي بصبغة ثقافية جعلتها وجهةً للمنتمين لحقول الثقافة يترسمون في ارتيادهم لها خطى من سبقوهم إلى مقاهٍ عربية وعالمية لعبت دورَ الحواضن لتوجهات فنية بما وفرته لمرتاديها من الكتاب والشعراء والفنانين من بيئات للحوار والنقاش الحر الذي يفتقدونه، أو يتوهمون افتقاده، في المؤسسات الثقافية الرسمية.

عادت المقاهي وقد خلعت عن نفسها ما كان يتلبسها من نظرة اجتماعية ترتاب فيها وتنظر نظرة انتقاص لمرتاديها، وعادت إليها القهوة بعد أن اتخذت لنفسها مذاقا وهيئة مختلفة عما كان يعهده عليها الناس، غير أنها عادت وقد خلعت عن نفسها، فيما خلعت، تاريخَها الممتدَ قرونا خمسةً كتبت بسوادها صفحاتٍ منه يوشك أن يطويها النسيان، ويطوي معها زمنا كانت فيه القهوة تاجا للمجلس حين تدور فناجينها بين وجوه القوم يحفونها بتقاليد تمتد من حدود الحفاوة بزهو الحياة إلى الاحتفاء برعشة الموت، عادت القهوة بيضاء لا ذاكرة لها ولا انتماء، ولم يعد المقتعدون مجالسَها يجدون في نكتها شيئا من عبق التاريخ الذي كان لها.

فهل لي أن أزعم بعد ذلك كله أن هذه الصفحات محاولة لاستعادة ذاكرة الأمة وطرق تفكيرها حين تحب وحين تكره، حين تقبل على ما تقبل عليه أو تصد عما تصد عنه، محاولة

لفهم السبب الذي كان يجعلنا نحث الخطى حين كنا نحاذي قهوة العمال في شارع السيد، محاولة للفهم تتلمس طريقها عبر التعرف على البيئة التي انتشر فيها تعاطي القهوة حين تم اكتشافها في أوائل القرن العاشر الهجري، والرجال الذين نسب إليهم فضل معرفة نبتتها وما أحاط ذلك من حكايات وروايات تتجاوز عتبة الواقع لتترك للمخيلة فرصة التعبير عن التوق للمطلق وكسر حد الممكن والولوج إلى عالم المستحيل، وما تلا ذلك من خروج القهوة عن محيط الذين تعرفوا عليها، وتحولِها من مشروب يكاد يقتصر تعاطيه على جماعة من العباد والزهاد والمتصوفة إلى مشروب يتعاطاه العامة من الناس ويهيئون له الأماكن التي يجتمعون فيها على شربه، وما استتبع ذلك كله من خروج القهوة عن المقاصد التي كان يتم تناولها من أجلها، واتصالها بأحوال وغايات جعلت تعاطيها موضعا للريبة، وأماكنَ شربها محلا للشبهات.

وقد انقسمت الدراسة إلى خمسة فصول تلت هذه المقدمة وانتهت بخاتمة حاولت أن أجمل فيها ما يمكن أن يكون النتائج التي خلصت إليها هذه الدراسة والأهداف التي سعت إلى تحقيقها، وقد جاء ذلك على النحو التالي:

الفصل الأول: تناول ما دار من روايات حول اكتشاف نبتة البن التي تم استخلاص القهوة منها، والبلدان التي تم اكتشافها فيها، وما اتسمت به جل تلك الروايات من عمل للمخيلة تجاوزت فيه حدود الوقائع التاريخية لتسبغ على اكتشاف القهوة

مسحةً من الخيال الذي يرتقي بالقهوة إلى آفاق عليا تضفي عليها وعلى شاربيها قيما روحية تسمو بها عما يمكن أن يماثلها من مشروبات يتعاطاها الناس في حياتهم اليومية.

الفصل الثاني: تطرق لتجليات القهوة، بدءاً من تلبس اسمها باسم من أسماء الخمر، وانتهاءً بما وصل به المتصوفةُ حبلَها من قَصص الكرامات التي يحظى بها العارفون بقدرها والمتعاطون لها، والعواقب التي تنزل بمن يذمها ويصدف عن شربها، وتنزيل ذلك كله منزلته من الاحتجاج لحل القهوة والدفاع عنها في مواجهة ما لحق بها من تحريم بعد ابتذال شربها لدى العامة من الناس.

الفصل الثالث: تعرض للقهوة حين شاع شربها بين العامة من الناس في القرن العاشر الهجري، وما تحدث به من أرخوا لتلك الفترة من أنهم كانوا يخلطونها بالمسكرات وأن البيوت التي أقيمت لشربها أصبحت مواقع للهو ولعب الشطرنج والغناء والرقص واجتماع الرجال والنساء، كما توقف هذا الفصل عند استغراق الشعراء الذين وصفوا القهوة، وما استعادوه في وصفهم لها من أوصاف تنتمي لمعجم الخمريات بالغين بدلالة اسم القهوة غايته من حيث إنه عرف في اللغة العربية باعتباره اسما من أسماء الخمر أو صفة من صفاتها.

الفصل الرابع: توقف عند ما انتهى إليه أمر القهوة من التحريم لما ارتبطت به في تصور من حرموها بالخمر، سواء في

التسمية أو في العادات المتبعة عند شربها، وما آل إليه أمرها لدى العامة من خلط بالمسكرات واجتماع على المنكر في البيوت التي تخصصت في تقديمها لمن يقبلون على شربها، كما توقف هذا الفصل عند الحجج التي قدمها من ينتصرون للقهوة والتي مكنتهم من استصدار فتاوى تنقض فتاوى التحريم، وتعيدها إلى قائمة ما هو حلال من الطعام والشراب.

الفصل الخامس: توقف هذا الفصل عند تفسير ما بقي مخبوءا من تاريخ القهوة فيما يحيط بها من تناقضات تبدأ بتنزيلها منزلة جليلة في المجالس، تعبر عنها جملة من القيم التي تتوجب مراعاتها من قبل من يقدمها، ومن قبل من يتم تقديمها له في الوقت نفسه، وتنتهي إلى ما كان يشوب المقاهي التي خلت منها، رغم أنها تحمل اسمها، من عيب يحمل على تجنب الجلوس فيها .

ولعلي لست بحاجة بعد ذلك كله إلى القول بأن ما بعثني إلى هذا البحث أمر يتصل بما لمسته من تقاطع لأنساق ثقافية ودينية واجتماعية وتاريخية جعلت من القهوة مصطرعا لسلم من القيم والعادات التي تحكم مسار الحياة اليومية و يحرص عليها الناس، دون أن يكونوا على وعي تام بالظروف والملابسات التي تكمن وراء تلك القيم والعادات.

وختاما أتوجه بالشكر والتقدير للأصدقاء في نادي الرياض الأدبي، وعلى رأسهم الصديق الدكتور سعد البازعي رئيس النادي سابقا، فقد كانت الدعوة التي قدموها لي لإلقاء محاضرة

في النادي فرصة لكتابة الورقة التي شكلت أساس هذه الدراسة، كما أتوجه بالشكر للأصدقاء في نادي تبوك الأدبي، وعلى رأسهم الصديق الدكتور مسعد العطوي رئيس النادي ، فقد كانت دعوتهم لي للمشاركة في منتدى سيسرا النقدي بإعادة تقديم المحاضرة التي ألقيتها في نادي الرياض حافزا لي لمزيد من البحث في الموضوع وكتابة محاضرة أخرى مكنتني من استكشاف جوانب أخرى منه، وهو ما أغراني بالعمل على إعادة النظر في المحاضرتين والخروج منهما بهذه الدراسة، التي أسأل الله أن تتنزل من قارئها منزلة تليق بالقهوة التي أطمئن إلى أنها تشكل قاسما مشتركا بيني وبين من تغريه هذه الدراسة بالسير في طرقاتها الوعرة لما تسعى إليه من استبطان لدلالات اللغة حينا وما تأخذ به من مناهج التأويل وتحليل الخطاب والربط بين ما هو ثقافي وديني واجتماعي وسياسي حينا آخر، في محاولة لتفهم ما يكاد يعسر فهمه واستعادة ما يوشك أن يطويه التاريخ.

سعيد مصلح السريحي

جدة- 25/ 11/ 1431

الفصل الأول

البحث عن الجذور..

(1)

تتعاقب على الحديث عن اكتشاف القهوة والتعرف عليها رواياتٌ عدة، تتقارب في تحديد المكان وتتباعد في تعيين الزمان، يوغل بعضٌ منها فيما لا يقوم له مقام في غير المخيلة، ويؤوب بعضُها الآخر إلى ما يقره العقل وتصادق عليه وقائع التاريخ، وتتنازع فضلَ اكتشافها كائناتٌ متباينة تمتد من العالم العلوي حيث تحلق الملائكة، إلى العالم السفلي حيث يتخفى الجان، وبينهما يتعاون الإنسان والحيوان ليشاركا في فضل اكتشاف القهوة.

وعلى ما بين تلك الروايات من تباين إلا أنها تتضافر فيما بينها لتكشف كل رواية منها وجها من وجوه القهوة وحقيقةً من حقائقها، على نحو يجعل من كل حكاية من حكايات اكتشافها حاضنةً لسرٍ من أسرارها وإشارةً إلى تجلٍ من تجلياتها، وتبقى تلك الروايات معلقةً بين أن تكون مؤشرا ينبئ بما سوف تتعرض له القهوة من تحولات تحيط بظروف انتشارها لاحقا في أوساط محددة من الناس أو جمهور العامة منهم، أو أن تكون تلك

الروايات تلبيسا تتراءى فيه قصص اكتشافها وقد أُشرِبت بما انتهى إليه أمرُها من اختلافٍ للقوم حولها وتنازعٍ بين إقبال عليها واستنكافٍ عنها.

والحديث عن بدايات اكتشاف القهوة وما يرتبط به من قصص وحكايات يتجانس مع الحديث الذي يدور في مجالسها حين يتحلق القوم حول النار التي أصبحت قرينا لها مذ عرف الإنسان أن سبيله إليها لا يتحقق إلا عن طريق النار، فهو أدخل في باب المسامرة التي تغري فيها المنادمة بمزج التاريخ بالأسطورة والوقائع بالخرافات .

يروي ابن العماد الحنبلي أن سكان إحدى المدن كانوا مصابين بمرض خطير، فعجزوا لذلك عن استقبال الملك سليمان الذي جاء لزيارتهم على بساط الريح مع حاشيته من الجن، فنزل جبريل على سليمان وأمره أن يأمر الجن تأتيه بثمر البن من بلاد اليمن وأن يحرقه ويطبخه بالماء ويسقيهم، ففعل فشفاهم الله، ثم تناسى الناس أمرها إلى أن ظهرت في أوائل القرن العاشر الهجري[1].

وينهض جبريل عليه السلام بالدور نفسه في الرواية الغربية لاكتشاف القهوة حيث يحل النبي محمد صلى الله عليه وسلم محل النبي سليمان وتذهب الرواية إلى أن جبريل، حين رأى حزن النبي محمد بعد أن كذبه قومه حين دعاهم، حمل إليه ثمر البن فذهب عنه الغم بعد تناوله لها[2].

وحين يقترب رواة تاريخ اكتشاف القهوة من واقعية التاريخ يحل العارفون بالله والأولياء والفقهاء محل الأنبياء والملائكة

والجن في التعرف عليها ، من ذلك ما يُروى من أن الشيخ العارف بالله أبا بكر بن عبد الله الشاذلي، المعروف بالعيدروس، مر في سياحته بشجر البن فاقتات من ثمره حين رآه متروكا مع كثرته، فوجد فيه تجفيفا للدماغ، واجتلابا للسهر، وتنشيطا للعبادة، فاتخذه قوتا، وطعاما، وشرابا، وأرشد أتباعه إلى ذلك، ثم انتشرت في اليمن، ثم إلى بلاد الحجاز، ثم الشام ومصر، ثم سائر البلاد[3].

أما الرواية التي تعيد فضل اكتشاف القهوة للشيخ الإمام جمال الدين أبي عبد الله بن سعيد الذبحاني فتجمع للقهوة بين القدرة على تحقيق الشفاء من المرض من ناحية، والقدرة على التحفيز للنشاط للعبادة والعمل من ناحية أخرى، فتذهب تلك الرواية إلى أنه لما تولى الشيخ الذبحاني وظيفة تصحيح الفتاوى في عدن، عرض له أمر اقتضى خروجه من عدن إلى بر عجم فأقام به مدة، فوجد أهله يستعملون القهوة، ولم يعلم بخاصيتها، ثم عرض له، لما رجع إلى عدن، مرض، فذكرها، فشربها، فنفعته، فوجد فيها من الخواص أنها تذهب النعاس، والكسل، وتورث البدن خفة ونشاطا، فلما سلك طريق التصوف، صار هو وغيره من الصوفية بعدن يستعينون بشربها، ثم تتابع الناس أجمعون والفقهاء والعوام على شربها للاستعانة بها على مطالعة العلم وغير ذلك من الحرف والصناعات، ولم تزل في انتشار[4].

وإذا كان قد تحقق لأحد الأولياء التعرف على القهوة بتجربة شخصية حين أقدم على الأكل من شجرة برية خلال

سياحته في الأرض، وتحقق لولي آخر التعرف عليها عندما رأى أقواما يتعاطونها خلال رحلته إلى بر عجم من إفريقيا، فقد كان أحد الرعاة وسيطا بين ولي ثالث وشجرة البن في رواية تذهب إلى أن أحد رعاة الماعز في عدن، واسمه خالدي، لاحظ أن الماعز كلما أكلت من براعم إحدى الشجيرات البرية ازدادت نشاطا ويقظة ، فأخبر ذلك الراعي وليا من الأولياء في منطقته، فأيقن أن أثرها على الإنسان سيكون أعظمَ من أثرها على الحيوانات، وأنها سوف تساعد الدراويش من أتباعه على السهر، وقضاء الليل في العبادة، فجربها الشيخ على نفسه، وشربها باردة أول الأمر فلم تحدث أثرا، ثم جربها ساخنة، فلاحظ أن مشروبها قد جعله يتصبب عرقا، وأحس بالصفاء الذهني، فدعا الناس لشربها[5].

وتطارد أحاديثُ اكتشاف القهوة المواقعَ والأماكنَ التي تظهر فيها شجيرتها حيث تكون، وتجْهَدُ أن تجد لها أصلا في الحبشة من أرض إفريقيا، حيث تم التعرف عليها، وهو موقع لا يبعد عن الأصل الذي هو لها في الروايات التي تعيد اكتشافها إلى أرض اليمن، فبين اليمن والحبشة من علاقات التقارب والتداخل ما يبرر ذلك ، غير أن رهبان الدير النصارى يحلون، في الروايات التي تعيد موطنها إلى إفريقيا، محل الأولياء والمتصوفة المسلمين، ويبقى دور القهوة كما هو من حيث إنها تتنزل منزلة الدواء الذي يزيل الكسل ويذهب النعاس وينشط الجسد فيقوى على السهر للصلاة والعبادة سواء كانت عبادة

أولياء من المسلمين يحيون الليل في الذكر، أو رهبانٍ من النصارى يمضون الليل في الإنشاد.

تتحدث الرواية التي تعيد موطن اكتشاف القهوة إلى إفريقيا عن أنه كان في الحبشة، وهي التي سمتها روايات أخرى بر عجم، في العصور الأولى للمسيحية رئيس دير يشكو من أن رهبانه يغلب عليهم النعاس إذا ما قاموا للصلاة في منتصف الليل، وجاءه يوما جمّال وقص عليه قصة غريبة، وهي أن هناك في بطن الجبل أعشابا إذا ما تناولتها الجمال تظل ساهرة طوال الليل، وقال إن هذه الأعشاب عبارة عن شجيرات ذات أوراق طويلة تحمل حباتٍ تميل إلى الحمرة، وسرعان ما أمره بإحضار بعض أوراق تلك الشجيرات، ثم غلاها وطلب من الرهبان أن يشربوا ماءها، ولشدّ ما كانت دهشته عندما لاحظ أنهم ينشدون صلاة نصف الليل بحماسة ونشاط غير معهودين[6].

والعودة بتاريخ التعرف على القهوة إلى أيام المسيحية الأولى في هذه الرواية ليست ببعيدة عن إعادتها لأيام الإسلام الأولى في الرواية الغربية لاكتشاف القهوة والتي تتحدث عن حمل جبريل حبوب البن إلى النبي محمد.

وإذا كان القول باكتشافها في إفريقيا يبعدها عن أرض العرب ليلحقها ببر العجم، فإن من شأن الجِمال التي تحل محل الماعز في الرواية الأخرى التي تربط التعرف عليها بأرض اليمن، أن يحفظ للعرب شيئا من الصلة بهذه النشأة وهي صلة تتحقق من خلال استحضار الجمل وثيق العلاقة بالعربي وثقافته.

(2)

ترتقي الروايات على تباينها بالقهوة، والنبتة التي تثمر حباتها، مكانة رفيعة حين تجعل من اكتشافها فعلا متصلا بمعجزات الأنبياء حينا، ومتصلا بكرامات الأولياء حينا آخر، فلا يغدو الاهتداء إليها فعلا بشريا خالصا بل حدثا يشارك فيه الملائكة والجان والحيوان على ما بين هذه الكائنات من اختلاف في سبل التعرف على العالم، سواء تحقق هذا التعرف بواسطة ما تتميز به من قوى خاصة بها، كما هو الحال مع الملائكة والجان، أو بواسطة ما تمكّنها منه الفطرة الخالصة كما في الجِمال أو الماعز الذي قاد الراعي إلى نبتة البن .

والعودة بالقهوة، على حداثة التعرف عليها، إلى عصور قديمة تكشف عن محاولةٍ تهدف إلى منحِها نسبا عريقا وأصالةً تربأ بها عن أن تكون مشروبا مُحدَثا فاتت معرفته على الأوائل، فلم يتمكنوا، على ما لهم من فضل، من الاهتداء إليه، فعهدها موصول بعهد نبي الله سليمان، وكان ينبغي لها أن تمتد منذ ذلك التاريخ لولا أن الناس تناسوها عصورا ثم عادوا لها بعد

ذلك، وبهذا تكون العودة إلى القهوة استعادة لتاريخها الذي تهدي إليه الملائكة وتحمله الجان، أو يقود إليه، بما لديه من فطرة، الحيوان، ويشفي الناس من داء خطير ألم بهم،أو يعينهم على ما هم بصدده من عبادة وعمل، وتكتسب القهوةُ بذلك عراقةً تبرأ بها عن أن تكون بدعة مما استحدثه المتأخرون من الناس الذين لا يبلغون فضلَ الأوائل فضلا عن فضل الأنبياء.

وقد رجّح الجزيري، حينما لم يجد للقهوة ذكرا عند العلماء الأوائل، أن يكون عرض لها عارض فاختفت ثم أعيد اكتشافها لاحقا وذلك حين نقل عن فخر الدين أبي بكر بن أبي يزيد المكي قوله: أما نحن فقد أدركنا القشرَ يُرى بمكةَ وغيرِها منذ عشرين سنة وأكثر، ولم تظهر القهوة منه إلا في أواخر القرن التاسع ،وإلى هذا الآن من القرن العاشر، ولم يتكلم عليها أحدٌ من علماء الزمان ، لأن الظاهر مما حررناه أنها لم تكن في زمانهم ولم يتكلموا عليها، إذ لم يروا فيها ما يقتضي التكلم، وليست مما تتوفر فيه الدواعي لنقله، ثم من استمرار الزمان عن ما سببٍ من الأسباب اندحضت ولم يُلتفت إليها، ثم ظهرت في الوقت الذي ذكرناه، وكم من أمور ظهرت في السنين الخالية ونسيت، ثم ظهرت بعد ذلك، فظن المدركُ لها أنها إنما وقع ابتداعُها في زمن إدراكه لها[7].

واستحضار نبي الله سليمان في سياق الاهتداء إلى القهوة يتيح إشراكَ الملائكة والجان في الوصول إليها، فهو النبي الذي يتصل خبره، كبقية الأنبياء، بالملائكة، وعلى نحو خاص

بحامل الوحي جبريل، ثم إنه يمتاز عن غيره من الأنبياء بتسخير الجن يحملون إليه ما يشاء ويفعلون له ما يأمر به، وإذا كانوا قد حملوا إليه ثمرة البن من اليمن في هذه الرواية فقد حملوا إليه عرش بلقيس من اليمن كذلك من قبل.

ولاستحضار سليمان في قصة اكتشاف القهوة علاقة أخرى تتصل بالأرض التي ظهرت فيها القهوة، ذلك أن علاقة النبي سليمان بأرض اليمن علاقة وثيقة مذ نبأه الهدهدُ بأسرار مملكة سبأ وملكتِها، وحملت له الجن عرش بلقيس، فكأنما لدى الجن إذ أمرهم بإحضار ثمرة البن له، بناء على نصيحة جبريل، معرفة بالأرض التي يمكن لهم أن يعثروا فيها على هذه النبتة فهي الأرض التي خبروها من قبل حين جلبوا منها عرش بلقيس لسليمان.

ويشكل الملَك جبريل قاسما مشتركا بين الرواية العربية لاكتشاف شجيرة البن والرواية الغربية، ويحل النبي محمد صلى الله عليه وسلم محل سليمان مكرسا طبيعة النظرة الغربية للقهوة باعتبارها المشروب المرتبط بالإسلام والمسلمين مذ تعرفوا عليها من خلال صلتِها، وصلتهم، بحاضرة العالم الإسلامي آنذاك اسطنبول، وقد استُثمِرت هذه الصلةُ في الترغيب في القهوة استثمارا لما تحمله من أجواء روحانية تتجاوب مع النزعة الاستشراقية نحو الشرق وسحر لياليه وطقوسه، أو صدا عن القهوة التي رأوا فيها امتدادا للإسلام والمسلمين الذين كانوا يناصبونهم العداء ويرون في انتشار كل ما هو متصل بهم امتدادا

لنفوذهم وهو ما حمل لاند رئيس أساقفة كانتربري على أن يرفع سنة 1637 مذكرة إلى مجلس العموم البريطاني طالب فيه بتحريم القهوة، كما طالب فيه بمعاقبة كل مسيحي يعتنق الإسلام، وقد جاء طلبه هذا، واستجابة مجلس العموم له، على إثر نقاشاتٍ كانت ترى أن للقهوة تأثيرا على العقل يغري من يشربها باعتناق الإسلام، وباتت حبوب البن آنذاك تعرف باسم «حبة محمد»[8].

وينهض استحضار الملَك جبريل في الروايتين العربية والغربية بدور هام ذلك أنه الملَك الموكل بمرافقة الأنبياء وتبليغ الوحي إليهم، والتوسط بين ما هو بشري وما هو إلهي، وبين ما هو أرضي وما هو سماوي، وحين يتولى هذا الملَك أمرَ الإخبار عن نبتة البن، أو يقوم بإحضارها، فإن من شأن ربط ذلك بوظيفته التي ينهض بها أن يجعل من العلم بأمر القهوة أمرا متصلا بعلم الغيب والاهتداء إليها اهتداء لما يحمل في داخله سرا سماويا ومقدسا.

ولا تغدو اليمن وإفريقيا، أو بلاد العجم كما تطلق عليها الروايات التي تعيد التعرف على القهوة إلى الأمتين اللتين كانتا تعيشان على أرضيهما، مجرد موطنين جغرافيين يشكلان الأرض التي تنبت فيها شجرة البن، ذلك أن العودة إلى هذين الموطنين عودة للوطن الأول للإنسان، سواء تمثل في اليمن حاضنة العرب الأولى أو إفريقيا المهد الأول للبشرية، وكأنما العودة إلى هذين الموطنين عودة إلى الجذور يتم من خلالها استصحاب القهوة التي فات على الإنسان استصحابها حين غادر

موطنَه الأولَ مهاجرا في أقطار الأرض، أو كأنما تعرّفه إلى القهوة في هذين الموطنين تعرّفا على ما هو أصيل وحقيقي، يتماثل في أصالته مع أصالة الإنسان الأول قبل أن تبدِّله الهجرة وتغيِّر مذاقَه المشروباتُ التي تعرف عليها في البلدان التي حطّ فيها رحاله حين تغرّب عن وطنه الأول، سواء كان اليمن مأرز العرب أو إفريقيا حيث تمتد الجذور العتيقة للإنسان.

وحين تربط القهوة بين اليمن والحبشة فإنها تستدعي التاريخَ المشتركَ للبلدين، كما يتمثل فيما كان يقوم به أهل اليمن من زياراتٍ للحبشة على النحو الذي يتضح من خروج الشيخ الذبحاني إلى بر عجم حين عرض له أمر بعد توليه تصحيح الفتاوى، أو فيما كانت تقوم به الحبشة من غزو لليمن على النحو الذي تكشف عنه الرواية التي تذهب إلى أن أبرهة الحبشي هو الذي نشر زراعة شجر البن في اليمن حين غزاها قبل الإسلام.

(3)

ويرتبط الاهتداء إلى القهوة واكتشاف نبتتها في الروايات المختلفة بحالات اعتلالٍ تصيب الجسدَ أو تلم بالنفس، مما ينزِّل التعرف على نبتتها منزلةَ التعرّف على البلسم الكفيل بالبرء من السقم والخلاص من الهم والسلامة من الكسل، فهي التي تشفي القوم الذين مر بهم النبي سليمان من المرض الخطير الذي ألم بهم وأقعدهم عن الخروج لاستقباله، كما أنها هي التي تساعد النبي محمد على الخروج من حالة الغم التي أصابته حين كذبه قومه، وأعانته على القيام بدوره في الدعوة إلى الإسلام والصمود في وجه من كانوا يناوئونه ويحولون بينه وبين تبليغ الرسالة، وكما شفت القوم الذين مر بهم سليمان فقد شفت الإمام الذبحاني من العارض الصحي الذي ألم به ثم لم يلبث أن وجد فيها ما يذهب النعاس والكسل ويورث البدن النشاط والخفة والقدرة على السهر والعبادة والذكر.

وحين يشترك في التعرّف على القهوة مختلفُ الكائنات، علويُّها وسفليُّها، ما هو مرئي ومشاهدٌ منها وما لا يدركه النظر

ولا تحيط به المشاهدة، ويلتقي في الحديث عن نشأتها الملائكة والجن والإنسان، ويكون أولُ المتعاطين لها الأنبياء والرهبان والأولياء والمتصوفة والصالحين، ثم لا نعدم بعد ذلك كله أن يكون الحيوان، قطيعا كان من الماعز أو قافلة من الجمال، هاديا إليها ودليلا على ما لها من خصائص ومميزات، فإن ذلك كله يجسّد ما تنهض به القهوة من سد لاحتياجات الروح والجسد في آن، فهي، كما تمنح النفس الصفاء، تهب الجسد النشاط، وكما يستعين بها الأولياء على السهر من أجل الذكر، والعلماء للتمكن من المثابرة على النظر في مسائل الفقه والإفتاء، يستعين بها العوام لينشطوا فيما يشتغلون به من الحرف والصناعات، وإذا كان الأنبياء والعباد قد كشفوا عن الجانب الإنساني العلوي الكامن فيها فمن شأن تعرّف الحيوان عليها أن يكشف عن الجانب الحيواني السفلي الذي لا تبرأ منه.

وتحرص الروايتان اللتان تعيدان اكتشاف القهوة للماعز حينا وللجمال حينا آخر على أن يمر اكتشافها من خلال وليٍّ من الأولياء مرةً وراهبٍ من الرهبان مرةً أخرى، وأن يتعاطى شربَها العبادُ والنساك والرهبان في البدء قبل أن يتعرّف عليها العوام من الناس، وكأنما هي تَعبُر بطقسٍ تطهيري تنتقل فيه من حالتها البهيمية والبدائية المتوحشة إلى الحالة الإنسانية المتمدينة، وتصبح بانتقالها من كونها نبتةً نيَّةً لا يأكلها إلا الحيوان إلى كونها نبتةً مطبوخةً حاملةً للدلالة على ثقافة

الإنسان وتصرفه فيما يهيئه لأكله وشربه مما حوله من نباتات برية بحيث يميزه تصرفُه فيها عن الحيوان الذي يكتفي بأكل ما حوله كما هو دون تصرف فيه.

(4)

ولا يمكن التأتّي لفهم الإلحاح على ربط التعرّف على القهوة بدور العبادة من صوامع للزهاد والمتصوفة إلى كنائس وبيع للرهبان والقساوسة، والارتقاء بأول العارفين بها والمقبلين على شربها والناصحين بتعاطيها إلى مرتبة الأنبياء والصالحين، إلا إذا ما اعتبرنا ذلك كله من باب التطهير للقهوة عما لحق بها بعد أن آل أمرُها إلى عوامِّ الناس فابتذلوها وخرجوا بمجالس شربها عما تكون عليه مقاماتُ الصالحين فخلطوها بالمسكرات وارتكبوا في البيوت التي كانت تقدَّم فيها المنكرات وما رافق ذلك كله من شبهاتٍ انتهت بها إلى التحريم وانتهت بشاربها إلى التجريم والطعن في خُلُقه وسلامة دينه.

الحديث عن أوائل من شربوا القهوة هو في جوهره حديث يقوم مقام الاستدلال على جواز شربها، وأسماء العلماء والزهاد التي تتوارد في هذا المقام حججٌ يرفعها المنحازون للقهوة والمنتصرون لها في وجه من يحطّ من قدرها أو يفتي بتحريمها، وحين أراد الجزيري أن يقيم الحجة على جواز شرب القهوة في

كتابه «عمدة الصفوة في حل القهوة» استشهد بما حرص عليه الشيخ شهاب الدين بن عبد الغفار من بحث عمّن شرب القهوة حين ظهرت في موطنها الأصلي اليمن فروى عن شهاب الدين قوله: ثم إني كتبت لبعض إخواننا في الله تعالى من أهل العلم والدين بزبيد، وهو الفقيه الأجل جمال الدين أبي عبد الله محمد بن الشيخ الإمام العالم العلامة عبد الغفار باعلوي، وهو من بيت كبير بزبيد مشهور أهله بالعلم والدين، وعن أول حدوثها فيه، فكان مما كتبه إليّ في الجواب ما صورته: وما ذكره لي سيدي حفظه الله تعالى، من البحث عمن شربها من أهل اليمن، فسأل المملوك جماعة من المعمّرين ببلدنا، رأسهم المملوك الفقيه العالم الصالح وجيه الدين عبد الرحمن بن إبراهيم العلوي، فإنه الآن زاد على التسعين، فأخبرني حفظه الله وأبقاه عن بدء أمر القهوة وذلك أنه قال: كنت بمدينة عدن فوصل إلينا بعض الفقراء السالكين، وكان يعمل القهوة ويشربها، وأنه كان يعمل للشيخ العلامة خاتمة العلماء بثغر عدن الفقيه محمد بافضل الحضرمي، والشيخ العارف بالله تعالى محمد الذبحاني ويشربانها بمحضر من الناس، وكفى بهما حجة[9].

ولهذا كله لنا أن نرى في كل ما ورد من حديث عن أوائل من تعرفوا على القهوة ومن أقبلوا على شربها تلك «الحجة» التي أراد المنافحون عن القهوة أن يقيموها على من أفتوا بتحريمها أو التبس عليهم أمرها فتوقفوا دون القطع بحكم حلها.

المراجع والإحالات

(1) ابن العماد الحنبلي: شذرات من الذهب في أخبار من ذهب -ج8-ص40---- دار المسيرة -بيروت- ط2-1399.

(2) ED S MILTON: A Cultural history from around the world.p7.Astrologpublishing house. 2003.

(3) نجم الدين الغزي : الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة - ج1-ص 113-114---تحقيق جبرائيل سليمان جبور- بيروت-1945.

(4) عبد القادر بن محمد الجزيري : عمدة الصفوة في حل القهوة --ص69-70- تحقيق عبد الله محمد الحبشي- هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي-1428-2007.

(5) محمود مفلح البكر : القهوة العربية في الموروث والأدب الشعبي-ص20--- بيسان للنشر والتوزيع والإعلام- ط 1--1995.

(6) محمد طاهر بن عبد القادر الكردي المكي :أدبيات الشاي والقهوة-ص 38-39---الدار السعودية للنشر والتوزيع-ط3-1404 = 1984.

(7) الجزيري : المصدر السابق -ص73.

(8) اتخذ محمد السماك في مقال نشرته جريدة البلاد البحرينية من القهوة والشاي رمزين يحيلان إلى الصراع الدائر داخل بنية المجتمع البريطاني بين الجالية المسلمة وما تستند إليه من هوية ثقافية وتاريخية ودينية وبقية المجتمع البريطاني بإرثه الثقافي والديني المتصل بالمسيحية مؤصلا لذلك بالكشف عن موقف الكنيسة في

القرن السابع عشر من القهوة التي بدأت آنذاك تأخذ طريقها للانتشار في أوساط الانجليز:

«في منتصف القرن السابع عشر جرى نقاش عام حول "المشروب الشرقي الجديد" المصنوع من البن (أي القهوة (كان النقاش يدور حول ما اذا كان هذا المشروع يؤثر على التوازن العقلي عند من يشربه من الإنجليز بحيث يجعلهم يتأثرون بالتعاويذ التركية (أي الإسلام) مما يمهد الطريق أمامهم للارتداد عن المسيحية. في ذلك الوقت كان هناك اعتقاد أن مشروب القهوة هو جزء من مؤامرة تركية لتدمير المسيحية. حتى إنه في عام 1637 رفع لاند رئيس أساقفة كانتربري مذكرة إلى مجلس العموم البريطاني طالب فيها بتحريم القهوة. وقد صدر تشريع بذلك بالفعل. كما طالب بفرض عقوبة على كل من يرتد من الديانة المسيحية إلى "التركية"، أي الإسلام. حتى إن البن كان يطُلق عليه في حينه اسم "حبة محمد".

وأضاف السماك:

«ربما تكون هذه الخلفية التاريخية وراء تفضيل البريطانيين الشاي على القهوة. حتى إن كمية الشاي التي تسُتهلك في بريطانيا تبلغ 150 طنا في اليوم الواحد، أما اليوم فان البريطانيين الذين أصبحوا من كبار مستهلكي القهوة في العالم رغم استمرار عادة تناول "فنجان الشاي بعد الظهر"، فإنهم لم يعودوا ينظرون إلى الإسلام تلك النظرة العدائية، ولم يعد المسلمون غرباء عنهم».

وأنهى السماك مقاله بما طرا على الجالية المسلمة من تغير اتخذ من تحولهم إلى شرب الشاي علامة عليه:

«لقد انتهى ذلك الزمن الذي لم يكن الانجليز يعرفون عن المسلمين سوى أنهم مجرد رعايا في إمبراطوريتهم الواسعة التي لم تكن تغيب عنها الشمس. أصبح المسلمون مواطنين يعيشون في ظل ضباب

المدن والريف البريطانيين جنبا إلى جنب مع الانجليز والاسكتلنديين والويلزيين والأيرلنديين سواء بسواء. أصبحوا مثلهم أيضا يحرصون على تناول كوب من الشاي بعد الظهر»

http://www.alarabiya.net/views/2010/05/17/108813.html

(9) الجزيري: المصدر السابق - ص 71

الفصل الثاني

تجليات القهوة..

(1)

بين القهوة المُزّة ذات الراووق الخضل التي تغنى بها الأعشى في معلقته حين غدا إلى الحانوت مع رفاقه للهو:

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني
شاوٍ مشلٌ شلولٌ شلشلٌ شولُ
في فتيةٍ كسيوف الهند قد علموا
أنْ ليس يدفع عن ذي الحيلة الحيلُ
نازعتهم قُضُبَ الريحان متكئا
وقهوة مزّة راووقُها خضلُ
لا يستفيقون منها وهي راهنةٌ
إلا بهاتِ وإن علّوا وإن نهلوا[1].

بين هذه القهوة، التي إن لم تكن اسما من أسماء الخمر فهي وصف من أوصافها يتنزّل منها منزلة الاسم إذا ذكر لا يمكن له أن يحيل إلا إليها، والقهوة التي أصبحت اسما لهذا المشروب المستخرج من نبتة البن، والذي بتنا لا نجد حرجا

في تعاطيه جهارا نهارا، نساءً ورجالا، فرادى ومجتمعين، في بيوتنا حين نشاء وفي الأسواق حين نريد، بين هذه وتلك متن من الاختلاف وهامش من الاتفاق، وإذا كان الحديث عن الاختلاف بين المشروبين أو القهوتين من فضول القول، فإن من شأن الوقوف على الاتفاق بينهما أن يمزّق غلالة الخطاب الذي يحيط بها، ويكشف عن تاريخ يكاد يكون مجهولا لها، ويفسّر جملة من الآداب الملازمة لشربها، والتي تبدو لنا مستغلقة عصية على الفهم ما لم نتوقف عند ملابسات التسمية وأسرارها.

يبدأ الاتفاق بين القهوتين من التسمية التي تجمع بين المسميين على ما بينهما من اختلاف، وهو اتفاق يشي بتوقٍ كامنٍ أضمرته وخمّرته تسعةُ قرون من تحريم القهوة الأولى ذات الراووق الخضل فصلت بين حجْب الأولى بالتحريم وملابسات ظهور الثانية، وهو توق بقي مقموعا لا يتجاوز عتبات الوعي، ولا يفصح عن نفسه إلا عبر تجاوزات ينزع عنها التأثُّمُ أو خوفُ العقاب تاجَ الانتشاء بها.

وقد ظلت تغذي هذا التوقَ، الذي تشي به استعادةُ الاسم، الآمالُ بخمر مؤجلة تبرأ من الصداع والنزف ولا يحظى بورود أنهارها في الجنة إلا من حمل نفسَه على الحرمان منها والصبرِ عنها في الدنيا، حتى كأنما تحريمُها صومٌ عنها يبطن، فيما يبطن، الارتقاءَ بها عن أن تكون مبتذلةً يتعاطاها من هو ليس بأهلٍ لتعاطيها في زمنٍ ليس هو بالزمن الذي يليق بها ولا في المكان الذي هو جدير بها وهي جديرة به.

ظلت الخمر في تحريمها محتفظة بهالة قداسةٍ تستمدها من فضاء الجنة التي تجري أنهارا فيها، كما تستمدها من الصالحين الذين استحقوا أن يكون تعاطيهم لها في الآخرة مثوبةً لهم بما قدموا من طاعة وما ألزموا أنفسهم به من تحريم لها، ظلت الخمر تحتفظ بهذه الهالة التي كانت تتمتع بها قبل التحريم حين كان شاربوها والمطرون لخصائصها يجعلونها قديمة كالدهر ومعتقة كدم الغزال.

وإذا كان التحريم لم يحُلْ دون احتفاء من لم يجدوا ضيرا في التغني بها على اعتبار التغني بها فنٌ من فنون الشعر وبابٌ من أبواب الولوج إلى بلاغة القول، فتعالت في ديوان الشعر العربي أصوات الخمريات، وعُرِف بها شعراء أوشكوا أن يجعلوا شعرهم وقفا عليها، أو زاوجوا بينها وبين ما يدور في مجالسها من لهو وطرب وتغزل بالنساء وبالغلمان، فإن التحريم لم يَحُلْ كذلك بينها وبين أن تتحوّل إلى رمز من رموز شعر التصوف فلهج المتصوفة من الشعراء بها تعبيرا عن حالة الوجد حين شربوا على ذكر الحبيب مدامةً سكروا بها من قبل أن يُخلق الكرم.

ولما كان التعرف على القهوة تمّ في بيئة المتصوفة الذين كانوا يستعينون بها على اجتلاب نشاط البدن وصفاء الذهن والسهر للعبادة، فمن المرجح أنهم هم من أطلق عليها اسم القهوة[2]، وهم، من خلال إطلاق تلك التسمية على المشروب المستحدث، يجسدون توقهم إلى الرمز الغائب سواء كان غيابه

لتحريم القرب منه حين يكون مشابها لخمر الدنيا، أو حين يغدو اللقاء به وعدا مؤجلا فيشبه غيابُه غيابَ الخمر المؤجلة حين تكون نهرا موعودا من أنهار الجنة.

واستعادة الخمر من خلال الذاكرة، أو عبر المخيلة، باستدعاء اسمها «القهوة»، أو وصفها المنزل منزلة الاسم، أمر لا يخلو من مخاتلة، فهي استعادة لاسمٍ غير متداولٍ من أسماء الخمر، أو هي استعادة لوصف تتوارى خلفه الخمر تواري شاربها عن الأنظار، وهي مخاتلة لما يجتمع فيها من التعبير عن التوق إليها مشفوعا بالحكمة التي تتجنب المجاهرة بهذا التوق، ولنا أن نرى في الاستعادة لاسم غير متداول من أسمائها أو وصف مهجور من أوصافها تعبيرا يتجانس مع استعادة المسمى الذي أصبح مهجورا ولم يعد متداولا كما كان قبل أن يطاله التحريم.

(2)

منحت القهوةُ المتصوفةَ صفاءَ الذهن ونشاطَ البدن مما كانوا يستعينون به على السهر من أجل الذكر والعبادة فمنحوا القهوةَ بعضا من كراماتهم التي يختصون بها جزاءً لما ينقطعون له من الذكر والعبادة، لم تعد القهوة نبتا بريا يعالج بالطبخ كما هي الحال مع بقية النباتات، ولم تعد نارُها نارا كتلك التي تنضج بها الأطعمة، حملت القهوة سرها الذي يعيدها إلى مقامات التعرف عليها حين حملت الملائكةُ خبرَها إلى الأنبياء واهتدى إلى نبتتها الصالحون فكانوا سبيل الناس للتعرف عليها.

لم تكن القهوة سببا للسهر فحسب بل أصبحت وسيلة للكشف وذلك لارتباطها بحلقات الذكر حتى آل التعرّفُ عليها بابا للعرفان وسبيلا لبلوغ المعارف اللدنية التي لا يتأتى التعرف عليها بغير صفاء الذهن وخلوص النية، يقول الجزيري في مقدمة كتابة (عمدة الصفوة في حل القهوة):

«حمدا لله الذي أباح لنا ما خصنا به من الطيبات، وأغدق إنعاماته وأفضاله بتنوّع المطعومات والنبات، ويسّر لأهل وداده

معرفة ما يكون معينا لهم على ما هم بصدده من الأوراد والعبادات، وسقاهم شرابا طهورا صفت به من شوائب تهجداتهم ساعاتُهم والأوقات، ووفّقهم لتناول ما أحله وحماهم من موارد الشبهات، وألهمهم من المعارف اللدنية، ما يكون سببا لترقيهم في المعارج العلية»

وحين يتم تنزيل القهوة والتعرف عليها منزلة النعم الموجبة للشكر والحمد لما تعين عليه من السهر للعبادة والنشاط للذكر يجوز أن ينظر إليها على أنها قهوة حب لله ويكون شربها من منن الله على من يخص من عباده بمنن تستوجب تسبيحه وحمده. . «فسبحان من أدار قهوة حبه على خواصه وحزبه، فهاموا طربا بذلك الشراب، أنار حنادس شكوكهم، ووضح لهم طرائق سلوكهم، وأزال عن قلوبهم الرين والحجاب، أظلهم بسحائب جوده وجمع وجدهم في توحيده، وأضافهم إليه بشرف الانتساب، استغرق أفئدتهم في ذكره، وألهمهم القيام بوافي حمده وشكره، ونظمهم في سلك الأحباب»[3]

أصبحت القهوة بذلك شرابا مرتبطا بما للمتصوفة من طقوس في العبادة، وانضمت إلى قائمة الأشربة التاريخية التي كانت الشعوب القديمة تحرص على تعاطيها خلال أدائها شعائر العبادة باعتبارها أشربة مقدسة، وهي في أغلبها أشربة تجمع لشاربها بين حالة النشاط البدني وحالة النشوة التي قد تفضي إلى السُّكر، وتمنحه الطاقة التي تمكنه من القيام بمقتضيات العبادة في الوقت الذي تشعره بحالة من الانتشاء التي ترتبط لديه بلحظة

التجلي والكشف، وتحقق ما يستهدفه من وراء العبادة من اتصال بالمطلق أو بالقوى الخفية في الكون وتواصل معها.

ومما يعزز حلول القهوة محل تلك الأشربة المنشطة والمسكرة ما وجدوه فيها من تنشيط للبدن وما أسقطوه عليها من أسماء الخمر أو صفاته.

وقد كشفت الدراسات التي تناولت الطقوس المرتبطة بالعبادات عن تجذّر البحث عما يمكن تعاطيه خلال أداء الشعائر الدينية، ففي إيران «كانوا يعتصرون من نبات غير معروف شرابا مسكرا يسمى السوما Soma وشاع في عقائدهم أن آلهتهم كانت تغتبط عندما يعبّون من هذا الشراب، ومن ثم كانوا يريقون هذا السائل المسكر للآلهة عند تقديم الأضاحي والقرابين، ويبدو أن إراقة الخمر كان فعلا ذا طبيعة شعائرية في بعض الأديان القديمة، كما كانوا يعتقدون أن الآلهة يحتسونها نشدانا للقوة، وفي الأساطير الهندية القديمة كان إندرا Indra إله العواصف والمطر يصارع فرترا Vritra الذي أمسك الماء في أعالي الجبال، ومن أجل هذه الغاية كان يعب ثلاثة أقداح من شراب السوما، مما يوحي أن هذا الشراب الأسطوري كان مصدر قوة للآلهة، وفي تراث الثقافة الآرية القديمة كثيرا ما كان مجمع الآلهة وأرواح الأسلاف يدعون على شراب السوما الممزوج باللبن»[4]

لم تحلّ القهوة محلَّ الأشربة المسكرة التي اعتادت الشعوب تعاطيها خلال شعائر العبادة فحسب، كما لم تكن

القهوة مجرد تجسيد يشكِّل حضورا ماديا وتجليا لرمز الخمر التي طالما تغنى بها المتصوفة في قصائد الوجد والنشوة، ذلك أن القهوة حلَّت محل الحشيشة التي شاع استعمالها في بيئات المتصوفة في القرن السابع الهجري، وقد وصفت الحشيشة بأنها خمر الفقراء والمتصوفة، والمقصود بالفقراء هنا الدرويش من أتباع المتصوفين، وكان اكتشاف نبتتها على يد شيخ متصوف يدعى حيدرة مدعاة أن يجتمع لها نسبتها إليه إضافة إلى تسميتها بالمدامة لما تمثله من استحضار لرمزية الخمر :

دعِ الخمر واشرب من مدامة حيدر
معنبرة خضراء مثل الزبرجدِ
يعاطيكها ظبيٌ من الترك أغيدٌ
يميس على غصنٍ من البان أملدِ
هي البكر لم تُنكح بماء سحابةٍ
ولا عصرت يوما برجلٍ ولا يدِ

وقد عرفت الحشيشة باسم القلندرية نسبة للشيخ أحمد القلندري الذي يذهب بعض المؤرخين إلى أنه أول من اكتشفها[5].

ولم تحظ الحشيشة بالقبول وظل تعاطيها مقصورا على أدعياء التصوف، وكان الشيخ محمد عيسى الهتاري المتوفى سنه 788 هجرية ينكر على من يدخل الحشيش إلى زاويته من الباعة[6].

وكما حلت القهوة محل الحشيشة التي لم تكن تحظى بالقبول، ومحل الخمر الذي لم يكن غير رمز، حلت محل القات الذي كان المتصوفة يستعينون باستعماله على السهر، وتربط إحدى الروايات بين إقبال المتصوفة على قهوة البن بانعدام القات، وكان يسمى الكفتة، من أسواق عدن، إذ تقول تلك الرواية إن الشيخ محمد بن سعيد الذبحاني قال لمن يلوذ به وينتمي إليه عندما انقطع القات من الأسواق: إن البنّ يسهر فامتحنوا قهوته، فامتحنوها فوجدوها تعمل عمله مع قلة الثمن والمؤونة، ثم استمر شربها[7].

وكما عُرِف ما يستخلص من نبتة البنّ بالقهوة عُرِف ما يستخلص من نبتة القات بالقهوة كذلك، وذلك ما أشار إليه الجزيري في حديثه عن «القهوة القشرية» ويعني بها المستخرجة من قشر البن، و«القهوة القاتية» المستخلصة من القات[8].

إن التعلق بالخمر واستحضارها كرمز للشراب المقدس عند المتصوفة، ثم ظهور الحشيشة التي عرفت بخمر المتصوفة، وما انتهى إليه الأمر من تعلق المتصوفة بالقات واستعمالهم له من أجل السهر للذكر والعبادة، جميع ذلك لا يجعل التعرّف على القهوة أمرا محكوما بالصدفة على نحو ما يمكن أن نشعر به من خلال الروايات التي تتحدث عن تاريخ التعرف عليها، ومن شأن وضعنا للتعرف على القهوة في سياق ما تم التعرف عليه قبلها من حشيشة أو قات أو ولهٍ بذكر الخمر أن يجعل من التعرف عليها محصلةً للبحث عما يمكن أن يحل محل الخمر

التي لم يعد هناك من سبيل لتعاطيها بعد القطع بتحريمها، ومحل الحشيشة التي كان يستكره شيوخ المتصوفة تعاطيها، ولعل مرد ذلك شيوع استعمالها لدى الإسماعيلية الباطنية الشرقية من أتباع حسن الصباح الحميري حتى عرفت الجماعة التي كانت تتبعه باسم الحشاشين وارتبط تاريخهم بجملة من التجاوزات العقدية والسلوكية(9).

ومن أجل أن القهوة حلت محل الحشيشة نجد أنه حين بدا لبعض العلماء القول بتحريم القهوة والحديث عن ذمها استعادوا ما قيل عن الحشيشة فوصفوا به القهوة فكان موقفهم منها موقفا مما حلت محله فقاسوا هذه بتلك على النحو الذي يكشف عنه الشاعر حين قال:

قل لمن قاس بالحشيشة جهلا
قهوةَ البنِّ يا عديمَ المعيشة
لم يقِسْ بالمضرِّ ذا النفع إلا
مذهبٌ عقلَه بأكل الحشيشة(10)

ويروي الجزيري أن الشيخ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن القطان المدني الشافعي اطلع على مؤلف في ذم الحشيشة فجعله برمته في ذم القهوة(11).

والشبهة التي أحاطت بالقهوة، حين حلت بديلا للحشيشة فاشتبهت عند من يتشكك في أمرها بها، دفعت المنافحين عنها إلى تأكيد الفارق بين القهوة وغيرها من المخدرات

والمسكرات، التي كان بعض المتصلين بالمتصوفة والمنتمين إليهم يتعاطونها استجلابا لحالة النشوة وطمعا في الوصول السريع لغيبوبة كان الصوفي يجاهد لكي يبلغها بما ينقطع إليه ويجتهد فيه من سهر للعبادة وإقامة لحلقات الذكر.

ودفْع الشبهة عن القهوة لا يتحقق بغير تمييز أثرها عن أثر غيرها على النحو الذي يكشف عنه العلامة نور الدين علي بن ناصر الشافعي المكي حين قال: «وليست القهوة بمسكرة ولا مضرة بعقل ولا بدن كما يشهد الحس والتجربة والوجدان وقياسها بالحشيشة قياس مع الفارق، وهو خطأ، لان الحشيشة والبنج والأفيون يورث الفتور والخدر في الأطراف ويورث كسلا وتنويما وانعقاد لسان، والقهوة على عكس ذلك تحدث لشاربها نشاطا وانبساطا وقلة نوم وانطلاق لسان ويقظة بإعانة على العبادة كما يشهد بذلك الحس البيّن الذي لا ينكره إلا غبي أو مكابر عرف الحق ولزم غلطه خوفا من حط منزلته عند العامة، أو متبع هواه خامل في العلم فيخالف كما يقال: خالف تعرف، وتخالف السُّكر لأنه يورث طيشا وخفة وجرأة على ما لا ينبغي»[12].

(3)

وصل المتصوفة القهوة ببعض مما يتصلون به من عالم الأرواح، يوثقون صلتها به كما توثق هي صلتهم به، وتتحول القهوة من مشروب يتعاطاه ولي من أولياء الله لتصبح هي نفسها وليا أو حاملة لسر ولي على النحو الذي يقرره أحد الأولياء حين تحدث عن القهوة مؤكدا : إن بها سرٌّ وليٍّ[13].

وإذا كان اكتشاف القهوة قد عقد بينها وبين الأنبياء صلة وصل فإن القطع بحلها والتخلص من أي شبهة يمكن لها أن تفضي إلى تحريمها لا يتحقق إلا بإعادة وصلها بمقام النبوة التي تستحضرها الرؤيا كما ورد عند الجزيري في القصة التي يرويها عن القطبي الطبيب:

«وأخبرني صاحبنا الرئيس الماجد زين الدين بن عبد القادر القطبي الطبيب، وهو من بقايا من اشتغل على أهل الصدور في أهل زمانه، واخذ علم الطب عمن كان يشار إليه في ذلك الزمان مع الأماجد من أقرانه، وممن عمر دهرا، وروى عن الدربة والتجربة أخبارا وزكا وطاب خبرا: أنه كان مما لا يقول بشرب

القهوة وينكر على مدمن شربها، وأقام على ذلك أعواما كثيرة من عمره، قال: فعرض لي مرض تألمت به جدا، وأوذيت بتواتره، وعالجته بما يجب عمله من الأدوية الطبية مما ظننته قاطعا في علاجه، فلم يفد وأمعنت الفكرة فيما ينجح في مداواته، فلم تخب نار إيلامه، بل تقد، فبينا أنا ثلث ذات ليلة وعين الهجوع لما نالني منه كليلة، إذ أخذني السنة، وآثرني بعد السهد بالحسنة، فغفوت إغفاءة، وجاد لذيذ النوم بعد الإساءة، فرأيت النبي صلى اله عليه وسلم، وشرف وكرم، وأشار لي باستعمال القهوة أو كانت من حضرته الشريفة السفارة، الشك مني في وقوع الإشارة، فانتبهت واستعملتها فلم أرَ عارضا، وعرفت بركتها بعد النكرة، وصرت لمن أعرض عنها معارضا»[14].

والرؤيا التي تكشف عن خاصية القهوة في العلاج تستعيد تلك الرواية التي تربط بين سليمان وقصة اكتشاف القهوة حين مر بمدينة يعاني أهلها من المرض فأشار عليه جبريل أن يأمر الجن فتحضر له ثمر البنّ من بلاد اليمن فيعالج به أهل القرية بعد غليه في الماء، غير أن القصة تقيم هنا النبي محمد صلى الله عليه وسلم مقام النبي سليمان وكأنما العلاج بالقهوة طب يتوارثه الأنبياء، ولا يهتدي إليه الأطباء من أمثال القطبي، صاحب هذه القصة أو صاحب هذه الرؤيا، على ما لهم من العلم والتجريب، بغير ما يشبه الفتح الذي تحمله الرؤيا حين تتجلى أثناءها طاقة النفس الخفية ومقدرتها على التواصل مع من لا سبيل لها للتواصل معه في اليقظة، بل مع عالم غيبي يمكن

له أن يكون تصحيحا لعالم الواقع الذي تعيش فيه ومعايير العلم الذي تعمل بموجبه، فالطبيب على طبه الذي تشير الرواية إلى أنه «أخذ علم الطب عمن يشار إليه في ذلك الزمان مع الأماجد في أقرانه، وممن عمر دهرا، وروى عن الدربة والتجربة أخبارا وزكا وطاب خبرا» يعجز عن معرفة دواء للعلة التي تصيبه، وتفشل محاولاته في التداوي بما يعتقد أنه دواء لعلته، ويبلغ به العجز أنه كان يصد عن شرب القهوة وفيها دواؤه وينكر على الناس شربها رغم ما فيها من فائدة.

القهوة، في هذه الرواية التي تجعل منها علاجا لطبيب فشل في علاج نفسه، لا تصبح مجرد علاج محتمل لداء عارض، بل تصبح تصحيحا للطب الذي يتوهم صاحبه أنه قادر على شفائه، وتأكيدا لعجز عالم العقل إذا ما قورن بعالم الكشف والرؤيا، القهوة تسهل، عندئذ، عملية العبور من عالم الشهادة إلى عالم الغيب، وتمكن من الانتقال من تلقي العلم على يد «من يشار إليه من علماء العصر» إلى تلقي اليقين على يد من يتم الاتصال به من أنبياء الله، وذلك ما يمكن أن تحمله لنا الرواية التي تبدأ بتحديد معالم شخصية الطبيب وما يتميز به من العلم، الذي تحرص الرواية على تبيين مصادره، لتقابل ذلك بنصيحة النبي له بشرب القهوة التي تشفيه مما لم تستطع الأدوية التي يعرفها شفاءه منه، والمرض في هذه الرواية يلعب دور المقوِّض لكل ما تم تأكيده للطبيب من علم توارثه عن مصادره ودعمه بالتجربة والدربة.

ثمة رواية أخرى تتم العودة فيها إلى النبي عبر الرؤيا ليتم الاحتكام إليه في الخلاف الذي دار حول جواز شرب القهوة، فمما يروى عن صوفية اليمن من كرامات حول القهوة ما نُقِل عن الشيخ علي الجازاني، قال: «وصل الشريف الرديني من اليمن إلى مكة لزيارة بعض الصالحين، وكان مولعا بالقهوة، وإمام الحرمين إذاك يكره القهوة، وتعاطيها، وفي الحرم الشريف أشد، فأرسل شخصا من تلامذته يقول للرديني: لا تشرب القهوة في هذا المحل بهذه الكيفية، فقال: السمع والطاعة، فثقل ذلك على أتباع الرديني، فلما كان عصر ذلك اليوم طلب طابخ القهوة وقال: زد فيها مرتين، فانشرحت الفقراء، فلما أصبح اليوم الثاني إذ رسول إمام الحرمين يشرب القهوة بحضرة الشريف الرديني، فعجب شيخه إمام الحرمين من ذلك، واستفصله، فقال رأيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول: يا ولدي أترك الرديني فإنه على الحق، وشربوا القهوة معه، وسلموا له»[15].

يبدو الخلاف في هذه الرواية بين سلطتين تختلفان رغم المرجعية الدينية الواحدة لكل منهما، يمثل إحداهما الشريف الرديني القادم من موطن القهوة اليمن والحامل لها من موطنها إلى مكة المكرمة، ويمثل الأخرى إمام الحرمين الذي كان يكره القهوة وتعاطيها، وتبلغ الرواية بالخلاف مداه حين يكون تعاطي القهوة التي يكرهها إمام الحرمين في الحرم الشريف نفسه مما يدفع بإمام الحرمين أن يبعث للشريف الرديني من ينهاه عن

ذلك، فيلتزم الرديني بالأمر ممتثلا لسلطة إمام الحرم كما ينبغي لزائر أن يمتثل لرغبة سيد المكان الذي يزوره.

بين الرجلين، أو السلطتين، يتحرك ممثلُ إمام الحرمين الشريفين المبلغُ لأوامره ونواهيه، والرواية تحرص على توثيق صلته بمن يمثله على مستويين: فهو من تلاميذه من ناحية كما أنه من أتباعه من ناحية أخرى، وإذا كانت التلمذة تقتضي الأخذ بالرأي والاتفاق في المذهب، فإن التبعية تقتضي الالتزام بالأوامر والعمل بموجب التوجيهات، وهذه المواصفات هي ما يؤهله لكي يكون ممثلا له وهي في الوقت نفسه ما تجعل من انتقاله إلى صف الشريف الرديني انتقالا للتلمذة بما تعنيه من أخذ بالرأي والمذهب وانتقالا للتبعية بما تشتمل عليه من سمع وطاعة، والرواية التي تؤكد في البداية على حق إمام الحرمين في السمع والطاعة تنتهي بانتقال الحق للشريف الرديني والتسليم له.

القهوة تصبح في هذه الرواية معبرا للعودة إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم باعتباره الجهة التي يتم الاحتكام إليها في تحديد الحق من الباطل وحسم ما يقع فيه الاختلاف، ومن ثم إعادة توزيع ميزان القوى ومعرفة من هو صاحب الحق والأحقّ بالإتباع، ومن هو الذي ينبغي عليه أن يذعن بالسمع والطاعة للآخر.

والفقراء الذين يظهرون عرضا في الرواية حين ينشرحون للأمر بمضاعفة كمية القهوة التي يتم إعدادها للشرب يحددون المقصود بتلك الفئة من أتباع الرديني الذين يثقل عليهم الأمر

بمنع شرب القهوة ومن شأن الاستغراق في فهم ما يعنيه ذلك كله أن يفضي بنا إلى النظر إلى انتقال الحق من إمام الحرمين وأوامره إلى الشريف الرديني وما كان يأخذ به من عادات على أنه مؤشر لانتقال الحق من فئة اجتماعية إلى فئة أخرى، وإذا كانت الرواية تتحدث عن أن أتباع الشريف الرديني هم الفقراء، بموجب ما تحيل إليه الكلمة في بعدها اللغوي الدال على الوضع الاقتصادي وبعدها الاصطلاحي المحيل إلى جماعة الدراويش من المتصوفة، فمعنى ذلك أن يكون أتباع إمام الحرمين هم الأغنياء، وبذلك لا تغدو القهوة دليلا على من يمتلك الحق فحسب، بل مؤشرا على بروز فئة اجتماعية لها الحق في أن تنشرح صدورها بما يمكن أن يمنحها الفرح والبهجة.

والخلاف بين إمام الحرمين والشريف الرديني، حول القهوة وجواز شربها والمجاهرة بذلك الشرب، امتداد للخلاف بين الفقهاء من ناحية والمتصوفة من ناحية أخرى وذلك ما يتبين لنا من الرواية التي تقول إن الفقيه محمد بن عراق كتب إلى أحد المتصوفة ينكر عليه شربه للقهوة وعقده لمجالس السماع وهي مجالس الذكر عند المتصوفة فأجابه الصوفي : إن ما أمرتني به بترك القهوة فيما بين الناس وشربها في الخلوة فكان الأولى أن تأمرني بعكس ذلك، وأما تركي السماع فلا سمع ولا طاعة[16].

(4)

ارتباط القهوة بالمتصوفة، اكتشافا حسب ما تشير إليه الروايات التاريخية التي تتحدث عن اكتشافها وتعاطيا حسب ما تحيل إليه المصادر التي تتحدث عن أكثر الأوساط احتفاء بتعاطيها، هذا الارتباط حوَّل القهوةَ إلى مشروب طقسي إذا كان من خواصه أنه يمنح الأولياء من المتصوفة نشاط البدن والقدرة على السهر وصفاء الذهن، فإن المتصوفة بدورهم أسبغوا عليه كراماتهم التي ما أن تمس العالم من حولهم حتى تخرج بالأشياء عن طبائعها وتتلبسها حالة تكون فيها على غير ما يعهد الناس وما تجري به العادة، وهذا ما يتضح مما أورده صاحب الزهر الباسم عن الشيخ علي الحلبي عن أبيه أحمد الحلبي قال: كنت أحضر مجلس شيخي أبي بكر فتُدار القهوة، وما كنت أشربها، ثم مضت مدة بتلك الحال، لم أشعر في بعض الأيام إلا وسكرجة مملوءة قهوةً تمشي إليَّ إلى أن وقفت بين يديَّ ثم تعالت وحاذت فمي فشربت في الهواء من غير حركة خارجة، فقال لي سيدي الشيخ: يا أحمد قهوتُنا لما شربت له[17].

السر الذي يكمن في القهوة هنا يتضح من خلال نسبة الشيخ أبو بكر هذه القهوة لنفسه، وهي النفس التي تنطوي فيها روح الجماعة كما يكشف عنها نون الجماعة، فلا تغدو تلك القهوة التي تمشي وتتعالى وترتفع حتى تحاذي فم شاربها مجرد قهوة بل هي قهوة مسكونة بروح التصوف فهي «قهوتنا» بحسب تعبير الشيخ أبو بكر وكأنما هو يقدم بتلك النسبة تفسيرا لتلك المعجزة التي بدت لأحمد الحلبي حين سعت إليه القهوة وارتفعت إلى أن بلغت فمه فشرب منها بعد أن كان منصرفا عن شربها.

نسبة القهوة، «قهوتنا»، ليست في هذا المقام نسبة تملُّكٍ أو استحواذ بل هي نسبة حلول، وما بدر وبدا منها من مشي وارتفاع ومحاذاة إنما هو تجلٍّ للروح التي تتقمصها على النحو الذي يجعلنا نتذكر كلمة ذلك الصوفي الذي قال عن القهوة بأن فيها «سر وليّ»، فحركتها لا تتجاوز أن تكون وجها من أوجه تجليات «السر» الكامن فيها.

وحين يستعيد الشيخ أبو بكر في كلمته «قهوتنا لما شُرِبت له» الحديثَ الوارد عن ماء زمزم بأنه «لما شُرِب له»، فإنه بتلك الاستعادة يرتقي بالقهوة إلى مقام أن تكون شرابا مقدسا ينعقد معناه وما يحتوي عليه من خواص وأسرار على نية من يقبل على شربه، فكلما خلصت نيتُه خلصت إليه خواصُها وأسرارها، فتكون له الصحة في الوهن، والدواء في السقم، حتى ترتقي به إلى مقام الصالحين من أصحاب الكرامات.

وارتباط القهوة بنية من يشربها يرد في رواية أخرى تبلغ حد الشَّطح الذي يتجاوز به قائله ما يمكن تقبله لما فيه من تعارض مع الأصول، يقول الجزيري:

«وذُكِر عن بعض صُلَحاء اليمن المتغالين في شربها والقائلين بحسن أمرها ونفعها أنه كان يقول : قهوتنا لما شُرِبت له، واعترض على القائل ذلك بأن الوارد في كتب السنة : ماء زمزم لما شُرِب له، وفي رواية أخرى: وفاتحة الكتاب لما قرئت له، فيروى انه أجاب بأنها جمعت سرَّيْ الفاتحةِ وماءِ زمزم»

وقد اعتبر الجزيري أن تلك الكلمة من الشطحات التي تُطوى ولا تُروى، غير أنه أخرج قوله قهوتنا لما شربت له مخرج النية فقال: «وأما قوله قهوتنا لما شربت له فيصح أن يقال في معناه ما تقدم ذكره وهو أن سائر الأعمال أصلها النية. . . . . فمن شرب القهوة على نية العبادة أو الذكر أو القيام ببعض ما يجب للباري عز وجل عليه من أعمال الطاعات فله ثواب هذه النية الحسنة والقهوة معينة على نشاطه وقيامه بما نواه، وإن كان بخلاف ذلك فهو بخلافه»[18].

ثمة ترابط عضوي بين القهوة والأولياء يجعل منها امتدادا لهم ويجعل أثرها امتدادا لأثرهم، سواء تمثل ذلك الأثر في الخير الذي كان يعود على من يتعاطاها، أو الشر الذي يحيق بمن يذمها وينكر فضلها، حتى بلغ الأمر بالفخر بن أبي يزيد أن يقول:

«اعلم أنه قد عُلِم بالاستقراء التام، الذي لا تختلف فيه الأفهام، وشاع بين الأنام وذاع، وملأ الأفواهَ والأسماع، أن كل من اعترض على هذه القهوة في طبخها ورام لإعدامها في الوجود ونسخها، فهو وإن طال في العلم باعه، وعظم بين البرية انتفاعه، لم يأمن من معارض ومضاد ومداحض، ولم يخلُ من حلول البلاء به، ووقوع الامتحان في نفسه أو ماله أو عقبه، ولا أقول الامتحان بل الامتهان، وصيرورته هدفا للمصائب والهوان، وما ذاك إلا لكونها من جملة موضوع أولياء الله ومصنوعاتهم المخترعة لإعانتهم على ما قصدوه من الخير الذي لا يتناه، وقد جرت عادة الله تعالى بالانتقام لأولياه، وأن من عاداهم كان من جملة من أعداه».

وروى الجزيري عن بعض أهل الصلاح أنه كان يقول: من استخف بقهوتنا يخاف عليه من سوء الخاتمة، وغالب من أنكرها ألجأته القدرة إلى استعمالها بسبب من الأسباب[19].

وتترقّى القهوة في المقامات فلا تتوقف عند أن يكون بها سر وليٍّ بل تغدو وليا في حد ذاتها حين يقوم المتصوف مقام السادنِ لنارها والمقدمِ القرابين لها على نحو ما تكشف عنه القصة التي تتحدث عن أن الشيخ أبا عبد الله محمد بن علي السودي الشهير بالهادي كان مولعا بشرب القهوة ليلا نهارا، يعدُّها بيده، وقدرُها أمامه، وقد يجعل رجلَه تحتها في النار مكان الحطب، وكل النذور التي كانت تأتيه من مأكولات وعودٍ وملابسَ يلقيها في نار قهوته، وقد بعث إليه السلطان عامر بن

عبد الوهاب خلعةً نفيسةً فألقاها تحتها، فاحترقت، فبلغ ذلك السلطان، فغضب، فأرسل يطلبها منه، فأدخل يده في النار وأخرجها كما كانت ودفعها إليهم[20].

الشيخ في هذه القصة يلعب دور الوسيط بين أصحاب النذور والقهوة فهو يلقي في نارها ما يقدمونه له من مأكولات وعود وملابس، وهم لا ينكرون عليه ذلك ولا يمتنعون عن مواصلة تقديم ما يقدمونه له من نذور وكأنما هم يدركون أنهم إنما يقدمون نذورهم للنار التي تنضج عليها القهوة.

وإذا كان أصحاب النذور يقدمون للنار المأكولات والملابس فالشيخ يقدم لها رجلَه التي يجعلها في النار تحت قدرها مكان الحطب في صورة رمزية للقربان البشري الذي كان يقدم قربانا للنار، فتنعقد بذلك الصلة بين الشيخ والنار بحيث يكون قادرا بعد ذلك على أن يدخل يده في النار ويخرج منها ما يريد.

والقهوة في هذه الرواية موصولة بالنوايا كذلك، وإذا كانت قهوة الشيخ أبي بكر السالفة الذكر لما شربت له فإن قهوة الشيخ السودي تتقبل من النذور ما يهدى لها عن طيب خاطر وصفو نية، ولذلك يسهل على سادنها السودي أن يسترد منها ما منحه إياها حين لا تطيب نفس المانح بما قدّم إليها، فيدخل يده في النار لكي يخرج خلعة السلطان كما كانت ويعيدها إليه، وكأنما نار القهوة تلفظ تلك الخلعةَ لتتم إعادتها لمن لم تطب نفسه بمنحها لها.

المراجع والإحالات

(1) ديوان الأعشى الكبير ص 6- شرح وتعليق :حسين نصار -مكتبة الآداب- القاهرة.

(2) أعاد محمود مفلح تسمية المتصوفة القهوة إلى أرواحهم المشبوبة التي ظلت تحن إلى الخمرة البعيدة المنال وإلى أنهارها التي وعدهم الله بها. القهوة العربية - ص 24.

(3) الجزيري: المصدر السابق: 48

(4) عاطف جودة نصر : الرمز الشعري عند المتصوفة- ص 353-ط الأولى - 1978- دار الأندلس دار الكندي - بيروت.

(5) المصدر نفسه: ص 339.

(6) محمود مفلح البكر : المصدر السابق - ص 35.

(7) الجزيري: المصدر نفسه - ص . 73

(8) المصدر نفسه ص 73.

(9) عاطف جودة نصر: المصدر السابق 340.

(10) الجزيري : المصدر السابق - ص 63.

(11) المصدر نفسه ص 63.

(12) المصدر نفسه 64.

(13) المصدر نفسه 65.

(14) المصدر نفسه 170.

(15) المصدر نفسه 16.

(16) المصدر نفسه 15.

(17) المصدر نفسه 16.

(18) المصدر نفسه 209.

(19) المصدر نفسه 209.

(20) محمود مفلح البكر: المصدر السابق - ص 36.

الفصل الثالث

حقول دلالية..

(1)

انتقلت القهوة من بيئة المتصوفة والعلماء، الذين وجدوا فيما توفّره لهم من صفاء الذهن ما يعينهم على الدرس ويساعدهم في العبادة، إلى بيئة العوام الذين باتوا يتعاطونها لما وجدوا فيها من تنشيط للبدن يمكنهم من القيام بما هو موكول لهم من الحرف والصناعات، ويمنحهم في الوقت نفسه فضلةً من النشاط يستعينون بها على ما يفرغون له من لهو ومرح.

حلّت القهوة، بما هي عليه من مشروب لا تفرضه الحاجة إلى الري من العطش كالماء، ولا يحمل عليه الإشباع من الجوع كاللبن، محلَّ الخمر الذي لا تفرضه ضرورة من عطش أو جوع، فكلاهما اختيار حر يعبِّر الإنسان بتعاطيه عن حريته حين يكون إقباله عليه إقبالا على ما لا يفرضه عليه منطق الضرورات، وما لا يضطره حفظ الحياة إليه كما هو الحال مع كل مأكل ومشرب مما لا يستقيم العيش إلا به، فله أن يشرب إن شاء إن لم يردعه تحريم، وله أن ينته عن الشرب إن أراد ترفعا أو استشعر تأثّما، دون أن يترتب على الانصراف عن شربه

أيٌّ منهما موتٌ كما لا تترتب على شربه حياة، كما هو الحال مع الماء والطعام.

وإذا كان المتصوفة قد استعادوا في علاقتهم بالقهوة الإرث الصوفي الذي اتخذ من التغنّي بالخمر وسيلةً لاستجلاب النشوة وسبيلا لتحقيق أثرها، مرتقيا بها إلى مقام الرمز دون أن يكون ذلك الترميز تجاهلا لما تتركه القهوة من أثر فعلي في النفس والجسد كشف عنه الشيخ الطبنداوي البكري الصديقي حين قال عن القهوة «ليست فيها إلا روحنة يسيرة، وتقوية قليلة»[1].

وحين أنكر العلامة ابن عبد الغفار على من يقول بأن القهوة كالخمر المسكر في تأثيرها، أنكر في الوقت نفسه على من ينفي عنها أي تأثير ويرى أنها كالماء القراح، فقال:

«وكما أن دعوى أنها من الخمر المسكر عين العناد والمكابرة كما تقرر على أكمل وجه، كذلك دعوى أنها لا أثر لها مطلقا بحيث لا يكون بين شربها وبين شرب الماء القراح مثلا فرق مطلقا من العناد المحض، لان هذا مما يكذبه الحس أيضا، لان أهلها يطبقون على أن فيها معنى يسمونه (مرقحة) بفتح الميم والقاف والحاء المهملة وسكون الراء وآخره هاء التأنيث، وهي لغة يمانية، وهذه المرقحة مما عُلم وجوده والتجربة في حق المباشرين لشربها وبتواتر النقل عنهم أيضا في حق من لم يشربها»[2].

وقال الشيخ شهاب الدين المزجد أنه يحصل لشاربها من النشاط والروحنة وطيب الخاطر، وقال: وذلك لأن من

خواصها المشاهدة فيها والتي لا يمكن إنكارها أن البدن يجد منها خفة عظيمة فتنشطه وتذهب عنه الكسل والنعاس سواء كان الوقت ليلا أو نهارا، فيحصل له إذا توجهت همته على شغل ما يشاء إشغاله دنيويا كان أو دينيا، وهذا النشاط المسمى بالمرقحة يختلف باختلاف أمزجة الناس[3].

ولم يكن للعوام من الناس الذين انتشر بينهم تعاطي القهوة أن يتوقفوا عند البعد الرمزي لها كما توقف المتصوفة وأن يكتفوا مِنها بما كان يكتفي به المتصوفة من قدرة على السهر للعبادة وصفاء للذهن يمنح القدرة على التأمل فاستغرقوا فيما اعتبره الشيخ الصديقي «روحنة يسيرة» وما أسماه ابن عبد الغفار «المرقحة» حتى بلغوا بها مداها، معيدين للقهوة حقيقة المعنى التاريخي لها من حيث الإحالة على الخمر وأحاطوا ذلك كلَّه بما يستدعيه من أجواء اللهو والطرب وما يصاحبه من غناء وتغزل بالقيان والغلمان، ثم بلغوا بالأمر مداه حين مزجوها بما هو مسكر من الخمر.

صاحب انتقال شرب القهوة من بيئة المتصوفة إلى بيئة العوام ما أسماه الشيخ المزجد اختلاف الأمزجة بين الناس فكان انتقالها إلى العوام انتقالا في المقاصد والنوايا التي تبعث إلى شرب القهوة، على حد تعبير الجزيري حين قال:

«ثم اختلفت المقاصد في الأمصار والبلدان، وتبدّل ذلك طوائف من أهل الفسوق والعصيان، وتشبهوا في أعراضهم مع إعراضهم عن مقاصد ذوي طاعة الرحمن، وخلطوا الجد من

الذكر بالهزل من القول والإكذاب، وكثُر تجمعهم على تعاطيها في حانات لهوٍ لهم بما أضيف إليها وبإدارتِها كالشراب، وحرّموا ما كان حلالا بأوصاف أفعالهم الخبيثة التي تظاهرُهم بها كلوامعِ السراب، وانهمك على شربها من أُبتلي بما زينه الشيطان فكان مسخا لغواته من الناس. . . . . .وكثر تعداد حاناتها وألمَّ بجمعها حسانُ الصبيان والمردان، وعكفوا بها على اللهو والبطالة واتِّباع خطوات الشيطان، وبدّلوا مجالسَ الذكر والعبادة بسماع الأنغام والملاهي والألحان، ولعب الشطرنج وغيره مما يصدهم عن ذكر الله وعن الصلاة، ويمدهم بوافر الخسران، وتنوعوا فيما يغير عقولهم من الخبائث التي يكف أقدامهم عليها واليد واللسان، وخلطوا بها أنواع المصطلات(*)»(4).

(*) اسم كان يطلق على كل ما يذهب العقل كالحشيش والبنج والأفيون .

(2)

أعادت تسميةُ القهوةِ الخمرَ إلى ذاكرة الناس، فاستعادوا جميع ما يتصل بها ويفضي إليها، وحين لم يجدوا في تأثيرها ما يبلغ بهم حد النشوة والثمل عمدوا إلى خلطها بما يبلغ بشاربها حد السكر «وأما القهوة فقد بلغنا أن أناسا يشربونها على هيئة شرب الخمر ويخلطون فيها المسكر، ويغنون عليها بآلة ويرقصون ويسكرون»[5].

وتحولت الأماكن التي يتم فيها تعاطي القهوة إلى حانات أو خانات مشبوهة، وأعتبر الاجتماع فيها من محن الزمان الذي ظهرت فيه واستجلبت بذلك الكراهة لها وانصراف أصحاب الفضل عن مجالسها، فلم يعد الاجتماع حول نارها اجتماعا للذكر والتأمل والعبادة بل هو الاجتماع الذي قال عنه الجزيري: «وإن كان - والعياذ بالله - الاجتماع لما فشا في هذا الزمن وعمت به البلوى وتواتر المحن من الانهماك في خانات لهوهم مما يؤثر في فساد أحوالهم ومحوهم، كما قدمنا الإشارة إليه بذكر شذرةٍ من قبائح أفعالهم الشنيعة، وصبابةٍ من خبائث

الطوية المخالفة لأمور الشريعة، كخلط القهوة بالمحرمات وإدارتها كالمسكرات والتوسع في الغيبة والنميمات وقذف أعراض المحصنات وانبعاثهم في اختلاق الأكذاب التي لا حقيقة لها وباطل الإشاعات وما لا خير فيه من الأعمال والمقاصد القبيحات»[6].

وحين شاع الإقبال على بيوت القهوة في مكة المكرمة وثارت الشكوك حولها سأل عنها خاير بك ناظر الحسبة بمكة آنذاك فقيل له : إن هذا شراب قد اتخذ هذا الزمان، وسميت القهوة، يطبخ من قشر حب يأتي من بلاد اليمن، يقال له البنّ، وأن هذا الشراب المذكور قد فشا أمره بمكة وكثُر، وصار يباع في أماكن على هيئة الخمارات، ويجتمع عليه بعض الناس من رجال ونساء بدف ورباب وغير ذلك من الملاهي، ويجتمع في الأماكن التي يباع فيها من يلعب الشطرنج والمنقلة وغير ذلك بالرهن وغيره مما هو ممنوع في الشريعة المطهرة حماها الله من الفسّاق إلى يوم التلاق[7].

وفي مرسوم أصدره السلطان الغوري إشارة على ما كان يحدث في المقاهي التي تقدمها آنذاك: «وأما القهوة فقد بلغنا أن أناسا يشربونها على هيئة الخمر ويخلطون فيها المسكر ويغنون عليها بآلة ويرقصون ويسكرون»[8].

وإذا ما أصبحت هذه هي حال ما كان يعرف آنذاك ببيوت القهوة فقد أصبح ارتيادها مما يخل بمكارم الأخلاق وتجنبها الذين يترفعون عن مجالسة السفهاء الذين لا يستنكفون عن

المجاهرة بالموبقات، يقول الشاعر علي جلبي بن هلال الحمصي:

أقول لأصحابي عن القهوة انتهوا
ولا تجلسوا في مجلس هي فيهِ
وما كان تركي شربَها لكراهة
ولكن غدت مشروبَ كلِّ سفيهِ[9]

وحين سئل الشيخ محمد بن محمد المولى أبو السعود مفتي التخت السلطاني عن شرب القهوة قال: ما أكب أهل الفجور على تعاطيه ينبغي أن يجتنبه من يخشى الله ويتقيه[10].

ويصف نجم الدين الغزي بيوت القهوة حاثا على تجنب الجلوس فيها فيقول:

أيها السائل الذي جاء يرجو — عندنا أن نبيحه شرب قهوة
قهوة البن لا تكون حراما — إنها لا تفيد في النفس نشوة
غير أن الذي يجيء بيوتا — هي فيها تدار عادمُ نخوة
إذ يرى المرد والمعازف والنرد — وكلٌّ يلهو فيتبع لهوه
ثم لم يقوَ أن يغير نُكرا — خشيةً أن يعد ذلك هفوة
أو يجيبوه بالإهانة والسوء — ويجفونه بأعظم جفوة
أو يخلي شياطينه لهواه — لهوه في تلك البيوت ولغوه
معرضا عن رشاده وتقاه — ساليا عن صلاته أي سلوة
كل هذا مخالف لطريق — خطه المصطفى وعرج نحوه
فاجتنبه ودع طوائف تدعو — ك إليه ولو بآكد دعوة[11]

(3)

وأقام شعراء العصر القهوةَ مقامَ الخمر، ووصفوا مجالسها في بيوت القهوة بما كانت توصف به جلسات الندامى في الحانات، وكانوا في ذلك يكرسون فاعلية التسمية، على اعتبار أن الحقيقة كامنة في الاسم وليست قاصرة على المسمى، كما كانوا يسترفدون في شعرهم القيم الفنية لما عرفه الأدب العربي في باب الخمريات.

وفتح الشعر بابا يستوحي من خلاله الشعراء ما يمكن أن تفضي إليه «الروحنة» وتنتهي إليه حالة «المرقحة» من تأثير في الأنفس وتأجيج للعواطف، على النحو الذي كشف عنه الجزيري في حديثه عن حالة الانشراح التي تعرض للمجتمعين على شرب القهوة حين قال:

«. . . ومن أعظم أسبابه اجتماع الأصدقاء المتحابين جدا، فإنه يحصل عنه لاسيما بعد طول بعد بينهم إنعاش زائد للقلب ونشاط قوي للنفس، بحيث إنهم قد يستغرقون في المحادثة وقتا كثيرا من غير ملل ولا فتور، ويذهلون عن الأكل والشرب

ويتزايد شغفهم فيه بحسب تزايد ما بينهم من الصفاء والمودة»[12].

وعمد الجزيري بعد ذلك إلى تصنيف تلك المجالس إلى عدة أصناف فمنها ما هو مجلس حشمة ووقار وذلك حين يكون اجتماعهم على «عبادة كالمذاكرة في العلم ومجالس الوعظ والذكر وإنشاد أشعار الأولياء»، ومن تلك المجالس ما هو مجلس مسامحة وطرح تكلف «كالتنزه في البساتين وتناشد الأشعار اللطيفة البليغة، وتذاكر النكت الأدبية البديعة» وتتحول تلك المجالس إلى مجالس أنس «قد يفرط حتى يؤدي إلى حركة الأعضاء وطرح الاحتشام والتوسع في الكلام مما لا يحسن في غير تلك الحالة من زيادة في المزاح وإنشاد شعر المجون»[13]

ومن شأن التأكيد على ما ورد عند الجزيري من إشارة إلى «تلك الحالة» التي لا يحسن في غيرها «زيادة في المزاح وإنشاد شعر المجون» أن يجعل من شرب القهوة والذهاب إلى ما كان يعرف بـ«بيوت القهوة» هامشا اجتماعيا تستباح خلاله أفعال وأقوال لم يكن يبيحها العرف الاجتماعي كما لم تكن تسمح بها آداب المجتمع وقيمه، وبذلك تتنزل القهوة منزلة من التسامح تجعل منها فعلا اجتماعيا لما هو مسكوت عنه وما لم يكن مستساغا العمل به والإقدام عليه في الحياة العامة.

وإذا كان العباد من المتصوفة والأولياء قد بلغوا بالبعد الرمزي للقهوة غايته حينما وصلوها بما يعرض لهم من حالات

الشطح وربطوها بما كانت تربط به الخمر عند المتصوفة من أبعاد رمزية، فإن الشعراء لم يكونوا بعيدين عن ذلك حينما استثاروا في القهوة بعدها الرمزي فأعادوا وصلَ اسمها بأصله واتخذوا منها ما كان يتخذه شعراء الخمريات سبيلا للقول، وانتهى الأمر بالقهوة التي كانت خمر الصالحين أن تكون خمر الشعراء والأدباء وأن تصبح بيوتها التي كانت مجالس للعبادة والذكر بيوتا للمعرفة وهي التسمية التي باتت تطلق على بيوت القهوة آنذاك(14).

أصبح للقهوة حقلها الدلالي المستمد من الحقل الدلالي لشعر الخمريات فجاز بعد ذلك أن تسمى فناجينها كؤوسا وأن تغدو كالخمر ماء للحياة:

رب سوداء في الكؤوس تجلت
تهب الروح نفحة من حياة
عندما ذقتها تحققت منها
إن ماء الحياة في الظلمات(15)

ويمكن لنا أن نستبين البعد الدلالي الذي توحي به عملية استبدال الكؤوس بالفناجين، التي جرت العادة أن يتم شرب القهوة فيها، حين نتوقف عند إشارة المحضر الذي كتب من أجل تحريمها وما ورد فيه من أن أمير مكة شهد جماعة يشربونها في كأس يتداولونه بينهم، وهو ما أعتبره الجزيري من باب الإيهام قائلا: «وفي قوله: كأس، إيهام أنه من الأواني

المختصة بالخمر كالبلور ونحوه، وهذا إيهام باطل فإن القهوة في الغالب إنما تشرب في سكارج الفخار، وقد يشربها في الصيني أهل الجدة»[16].

وكما كان للخمر عذول يلوم في شربها فقد أصبح للقهوة عذول كذلك:

يقول عذولي قهوة البن مرة
وشربة حلو الماء ليس لها مثل
فقلت لها على ما عبتها من مرارة
قد اخترتها فاختر لنفسك ما يحلو[17]

وأصبح من الجائز أن تسمى الأماكن التي يجتمع فيها المقبلون على شربها والمفتتون بها حانات وأن يكون من يلتقون فيها ندمان يتّسمون باللطف:

عرج على القهوة في حانها
فاللطف قد حل بندمانها
فإنها لا هم يبقى إذا
قابلك الساقي بفنجانها[18]

ولها أن تسمى سلافة وأن تهب من يشربها سرورا وتغريه بإفشاء ما يتكتم عليه من أسرار:

خليلي قوما نجتلي من زماننا
سلافة بنٍّ عسجدي منظم

إذا ذاقها المحزون أبدل حزنه

سرورا وأبدى بالحديث المكتم[19]

وكما كانت الخمر تغري بالتغزل بمن يقدمها فقد أصبح من يعد القهوة ويصبها مستحقا للتغزل به كذلك :

أسقنا من يديك قهوة بن

وأدرها ممزوجة برضابك

لا تحكم سوى كؤوسك فينا

أنت كفؤ ونحن من خطابك[20]

المراجع والإحالات

(1) محمود مفلح البكر: المصدر السابق - ص 45.

(2) الجزيري: المصدر السابق - ص 142.

(3) المصدر نفسه - ص 143.

(4) المصدر نفسه - ص 50.

(5) المصدر نفسه - ص 104.

(6) المصدر نفسه-ص - 145.

(7) المصدر نفسه - ص 91.

(8) المصدر نفسه - ص 104.

(9) محمود مفلح البكر : المصدر السابق - ص 46.

(10) المصدر نفسه - ص 46.

(11) المصدر نفسه - ص 47.

(12) الجزيري : المصدر السابق - ص 144.

(13) المصدر نفسه - ص 144.

(14) محمود مفلح البكر: المصدر السابق - ص 39.

(15) محمد طاهر الكردي:. المصدر السابق - ص 95.

(16) الجزيري: المصدر السابق - ص 98.

(17) محمد طاهر الكردي: المصدر السابق - ص 95.

(18) المصدر نفسه - ص 101.

(19) المصدر نفسه - ص 101.

(20) المصدر نفسه - ص 97.

الفصل الرابع

التحريم ولعبة الأسئلة..

(1)

لم يكن من السهل على ناظر الحسبة في مكة في أوائل القرن العاشر خاير بك المعمار أن يطلب من حاكم مصر السلطان قانصوه الغوري، والذي كانت تخضع لحكمه مكة في عصر المماليك، إصدار مرسوم سلطاني يحرم فيه القهوة، كما لم يكن من اليسير عليه أن يستبق صدور المرسوم فيبعث مناديا في أسواق مكة ينادي بالمنع من شربها وبيعها، وأن يبدأ في اتخاذ العقوبات تجاه من يخالف قرار المنع، ولذلك استبق ذلك كله بعقد مجلس ضم قضاة وعلماء وفقهاء مكة من مختلف المذاهب، كما ضم بعض الأطباء وشهود العيان، تداولوا فيه النظر في أمر القهوة من النواحي الفقهية والطبية، لينفض مجلسُهم وقد أجمعوا على أن القهوة مفسدة للبدن ومذهبة للعقل مما يستوجب تحريمها قياسا على ما يماثلها من المذهبات للعقل والمفسدات للبدن، كما حرص ناظر الحسبة على أن يتم تدوين وقائع ذلك المجلس وما ألحق به من فتاوى في محضر قام بإرساله إلى مصر لاتخاذ اللازم والوصول إلى

حكم قاطع يصبح نافذا وملزما بموجب مرسوم سلطاني، وقد أورد الجزيري نص المحضر الذي جاء فيه:

«صورة واقعة شرعية مضمونها: أن مولانا المقام الشريف أبا النصر قانصوه الغوري لما أقامه الله خادما للحرمين الشريفين، جعل الجناب العالي خاير بك المعمار ناظرَ الحسبة بمكة المشرفة وباشا على المماليك السلطانية بها، فكان مما اتفق له أنه في الليلة التي يسفر صباحها عن يوم الجمعة الثالث والعشرين من شهر ربيع الأول سنة سبع عشرة وتسعمائة، صلى العشاء الآخرة بالمسجد الحرام مع الجماعة على عادته، ثم طاف بالكعبة الشريفة ما بدا له، وابتدأ بتقبيل الحجر الأسود وختم به، والتزم بالملتزم، ودعا بما بدا له، ثم صلى خلف المقام ركعات الطواف ودعا بما بدا له، ثم شرب من ماء زمزم ودعا كذلك، ثم توجه من المطاف إلى بيته، فرأى في طريقه ناسا مجتمعين بالمسجد الحرام في ناحية منه قد جمعهم السيفي قرقماس الناصري، يزعم أنه قد عمل مولدا للنبي صلى الله عليه وسلم، فلما أقبل عليهم قبل وصوله إليهم طفوا الفوانيس التي كانت موقودة، فاتهمهم في ذلك، وأرسل إليهم وكشف أمرهم فوجد بينهم شيئا يتعاطونه على هيئة الشَّرَبَة الذين يتعاطون المسكر، ومعهم كأس يديرونه ويتداولونه بينهم، قرقماس المذكور هو الساقي لهم بالقدح المذكور، فلما علم الأمير أنكره خاطره، خصوصا ووظيفته الحسبة التي موضوعها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فسأل عن الشراب

المذكور، فقيل له إن هذا شراب قد اتخذ في هذا الزمان، وسميت القهوة، يطبخ من قشر حبٍّ يأتي من بلاد اليمن يقال له البنّ، وأن هذا الشراب المذكور قد فشا أمره بمكة وكثر وصار يباع في مكة في أماكن على هيئة الخمارات، ويجتمع عليه بعض الناس من رجال ونساء بدفٍّ وربابٍ وغير ذلك من آلات الملاهي، ويجتمع في الأماكن التي يباع فيها من يلعب الشطرنج والمنقلةَ وغير ذلك بالرّهن وغيره، مما هو ممنوع في الشريعة المطهرة حماها الله من الفساق إلى يوم التلاق، فلما سمع الأمير ذلك أنكر الأمر، وتذكر قوله تعالى: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) وقوله صلى الله عليه وسلم: (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان) وفي رواية: (وليس وراء ذلك مثقال حبة خردل من الإيمان)، فأنكر على الجماعة المجتمعين، وفرّق جمعهم وشتت شملهم، فلما أصبح جمع قضاة الإسلام وعلماء الأنام ممن هو متصف بمعرفة العلم والتصوف والصلاح والزهد والورع، والذين يُقتدى قولهم وفعلهم من السادة الشافعية والمالكية والحنفية، فحضر مولانا قاضي النجمي المالكي، وتعذر حضور قاضي القضاة نسيم المرشدي الحنفي لضعف أوجب انقطاعه، وحضر الشيخ شهاب فاتح بيت الله الحرام، والشيخ عفيف الدين عبد الله اليماني الحضرمي الشافعي المعروف بأبي كثير، والشيخ الإمام عبد النبي المغربي المالكي. . .وجماعات كثيرة، وأحضر القهوة في مركن كبير،

والكأسُ معهم، وفاوضهم الأمير خاير بك المشار إليه في أمر القهوة المذكورة واجتماع الناس عليها على الهيئة المشروحة، فأجابوا أجمعين بأن اجتماع الناس عليها على هذه الهيئة حرام اتفاقا يجب إنكاره على كل قادر عليه، وأما الحبّ المسمى بالبنّ المذكور فحكمه حكم النباتات، والأصل فيه الإباحة الأصلية لقوله تعالى: (خلق لكم ما في الأرض جميعا) فإن كان يحصل من مطبوخ قشره ضررٌ في البدن أو في العقل أو تحصل به نشوةٌ ولذةٌ وطربٌ فإنه حرام، ولو استعمله الإنسان بمفرده في داخل بيته، والمرجع في ذلك إلى الأطباء، فلما سمع الأمير خاير بك بأن المرجع إلى الأطباء أحضر الشيخين الإمامين العلامتين الشيخ نور الدين أحمد العجمي الكازروني وأخاه علاء الدين علي، وهما أعيان السادة الأطباء المعالجين للسيد الشريف بركات بن محمد وأخيه معز الدين قايتباي والسادة التجار بمكة وجدة أعزهما الله تعالى ونفع ببركتهما، وسألهما عن هذا البنّ الذي يتخذ من قشره هذا الشراب، فذكروا أنه بارد يابس مفسد للبدن المعتدل، فاعترض عليهما شخص من الحاضرين ممن ليس له إلمام بالطب، وقال: إن البنّ مذكور في (منهاج البلغاء) وأنه محرق للبلغم، فقال الطبيبان: إن البنّ المذكور في المنهاج ليس هو هذا، فإن هذا جزء مفرد بسيط وذاك مركب من أبازير، ولو كان مباحا فقد جر إلى معصية، وكل طاعة جرت إلى معصية سقطت، فإذا دار الأمر بين المحرم والمبيح قدم المحرم، وأبانا شهادتهما بصيغة (أشهد)

المعتبرة لدى مولانا شيخ الإسلام الصلاحي الشافعي، ومولانا شيخ الإسلام النجم المكي، ثم ذكر جماعة من الحاضرين بالمجلس أن القهوة المذكورة ذُكِر لهم أنها حلال، فاستعملوها بناء على الإباحة الأصلية فتغيرت حواسهم وأنكروا هيئتهم وتغيّر عقلهم، فحصل بذلك الضرر في أبدانهم، وأقاموا شهادتهم بذلك عند من أشير إليهما بحضرة الجماعة الحاضرين، ثم روجع في ذلك في داره سيدُنا قاضي القضاة نسيم الدين الحنفي لتعذّر حضوره فقال إنه أقيم عنده البينة بمثل ذلك وحصل منه التصريح بحرمتها، ثم صرح مولانا شيخ الإسلام النجمي المالكي والجماعة الحاضرون بحرمتها، وحصل إجماعهم على ذلك، ولما تم الأمر على ذلك وتحققه الأمير خاير بك المحتسب، أشهر الندا بمكة المشرفة بمسعاها ونواحيها وطرقها بالمنع من تعاطي القهوة المذكورة، ومنع من يتعاطاها، وانفصل الأمر على ذلك، وجعل ثواب ذلك في الصحائف الشريفة، كل ذلك في ضحوة يوم الجمعة المبارك الثالث والعشرين من شهر ربيع الأول عام سبعة عشر وتسعمائة، وحسبنا الله ونعم الوكيل»[1].

وقد أتبع الجزيري نص المحضر بنصوص فتاوى القضاة والعلماء التي دونوها عليه، فقد أوجز قاضي القضاة صلاح الدين بن ظهيرة الشافعي رأيه فكتب: «الحمد لله وتوكلت عليه، الأمر كما شرح وبين ونقح»، أما القاضي عبد الغني بن أبي بكر المرشدي الحنفي فكتب: «أحمد الله وأفوض أمري

إلى الله، الأمر كما شرح من مراجعتي في داري بسبب عذر شرعي وقد قامت البينة عندي بما ثبت من حرمة القهوة المشروحة فيه، اللهم اهدنا الصواب وارضَ عنا»، وكتب القاضي نجم الدين بن عبد الوهاب بن يعقوب المالكي: «الحمد لله العادل في قضائه، ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون، وألطف بنا في كل حركة وسكون، ونعوذ بالله من قول الزور والتعاطي بحرم الله أسباب الفجور، وقد شهد عندي جماعة من الأعيان ذوي المعرفة والإتقان لإفسادها للأبدان، وبين ذلك غاية البيان والأمر كما شرح فيه من غير شيء ينافيه»، وأشار الجزيري أن بقية التعليقات التي دونت على ذلك المحضر لم تخرج عما أورده «إذ ليس فيها غير الموافقة على مضمونه بناء على الصفات المشروحة فيه»[2].

(2)

تكرس اللغةُ التي كتب بها المحضرُ الموقفَ من القهوة استنادا على أحكام الشريعة وما تقتضيه من تحريم لها لما تأكد للعلماء والقضاة الذين حضروا المجلس المنعقد للتباحث في شأنها من أنها مضرة للبدن ومفسدة للعقل، كما شهد بذلك المختصون في الطب وكما أفاد الشهود الذين شهدوا بما أحدثته فيهم من أثر، وتمهّد بنية المحضر، من حيث مقدمته التي سردت حيثيات القصة التي دعت إلى عقد المجلس، لخاتمته التي انتهت إلى ما أراد لها من دعا إلى انعقاد المجلس أن تنتهي إليه، وذلك حين تم التعريف بناظر الحسبة خاير بك الداعي لعقد الاجتماع من خلال أفعاله التي يحرص فيها على القيام بكافة الواجبات التي توجبها الشريعة الإسلامية أو تسن القيام بها، فهو قد بدأ بصلاة العشاء في المسجد الحرام مع الجماعة، والتأكيد على أن ذلك صلاته مع الجماعة «كعادته» تعني أن ذلك الأمر منه ليس حدثا استثنائيا فهو معتاد أن يصلي مع الجماعة، ثم طاف وقبّل الحجر الأسود في بدء الطواف كما قبله في

خاتمته، ثم التزم بالملتزم، ودعا، ثم صلى خلف المقام، ودعا كذلك، ثم شرب من ماء زمزم، ودعا للمرة الثالثة.

وفي مقابل خاير بك تظهر لنا الجماعة التي تتعاطى القهوة في المسجد الحرام كذلك، غير أن المحضر الذي اهتم بتتبع ما حرص عليه خاير بك من العبادات لا يذكر شيئا من ذلك حين يعرض لتلك الجماعة، وكأنما هو يوحي أنها لم تصل كما صلى، ولم تطف كما طاف، ولم تلتزم بالملتزم كما التزم، ولم تدع بينما هو دعا في مواقف ثلاثة، ولا تذكر لتلك الجماعة غير عملِ مولدٍ تورده بصيغة الزعم «يزعم أنه أقام مولدا للنبي» والزعم مطية للكذب.

ويتحول المسجد الحرام، الذي كان مكانا للعبادة بالنسبة لخاير بك، إلى مكان لعمل مريب يكشف عنه إطفاءهم للفوانيس حين رآهم خاير بك، وحين تحقق من أمرهم اكتشف أنهم يتعاطون القهوة، والتي يحرص المحضر على أن يوردها بصيغة التنكير المعزز للشبهة فقد وجد بينهم «شيئا يتعاطونه على هيئة الشَّرَبَة الذين يتعاطون المسكر ومعهم كأس يديرونه ويتداولونه بينهم».

الإلحاح على أداء خاير بك لواجبات العبادة وسننها يؤكد عندئذ حقه في إقامة شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأهليته التي تمنحه الحق في أن يدعو علماء مكة وقضاتها لمناقشتهم في حكم ما رآه وما أنكره، ومن ثم استدراجهم للوصول إلى حكم الشريعة في ذلك كله، فكان له ما أراد حين

قطع العلماء المجتمعون بتحريم اجتماع الناس على تلك الهيئة مؤكدين على وجوب إنكاره على كل قادر، وهو ما يعني تفويضهم لخاير بك، وهو القادر، تفويضا يتخذ بموجبه الإجراء الكفيل بمنع مثل ذلك الاجتماع.

وحين توقف المجتمعون عن القطع بحكم في أمر القهوة في حد ذاتها، انطلاقا من أن الأصل في الأمور الإباحة جاء دور المختصين في الطب وشهود التجربة ليؤكد الأولون على إضرارها بالجسد ويشهد الآخرون على إفسادها للعقل، وهي الحيثيات التي مكنت العلماء والقضاة المجتمعين من إصدار حكمهم الثاني والقاضي بتحريم مشروب القهوة في ذاته «.. ولو استعمله الإنسان بمفرده في داخل بيته»، وما يمكن أن يعنيه ذلك الحكم من تفويض يحق بموجبه لخاير بك أن يترصد من يشربون القهوة ويتعاطونها خفية في بيوتهم.

وتكشف سرعة ما اتخذ من إجراءات، ابتداء من الدعوة لعقد المجلس وحضور العلماء والقضاة وإحضار الطبيبين والشهود، وانتهاء بكتابة المحضر وبدء تطبيق الفتوى وإشهار النداء بالمنع صبيحة الليلة التي رأى فيها خاير بك الجماعة المجتمعين لشرب القهوة، يكشف ذلك كله عن أن الأمر كان مخططا له من قبل ولم يكن وليد صدفة مكنت خاير بك من معرفة ما كانت تتعاطاه تلك الجماعة في المسجد الحرام على نحو ما يمكن أن توحي به الرواية، وقد أعاد الجزيري بدء الإنكار للقهوة إلى «رجلين أعجميين أخوين كانا مشهورين

بالحكيمين وكان لهما فضيلة في المنطق والكلام ومشاركة في الطب» كانا ينكران أمر القهوة ويذكر أن الشيخ شمس الدين محمد الحنفي الخطيب نقيب قاضي القضاة قد أعانهما على ذلك واستطاعوا إقناع خاير بك بمنعها من الأسواق(3)، ويبدو أن هذين الأخوين الطبيبين الأعجميين، واللذين لا يذكر الجزيري اسميهما، هما الشيخ نور الدين أحمد العجمي الكازروني وأخوه علاء الدين، الطبيبان اللذان ذكر المحضر أنهما شهدا في مجلس القضاة والعلماء على أن شراب القهوة «بارد يابس مفسد للبدن المعتدل»، وقد وصفهما الجزيري بأنهما «أصل المجلس وخصمه والسبب فيه»(4)، وليس من المستبعد أن يكون موقفهما من القهوة، وهما طبيبان، إنما يعود لتعاطي الناس لها باعتبارها ضربا من الدواء مما ينزل إنكارهما لها من باب الصراع بين أصحاب الحرف حين تتعارض مصالحهم.

وقد تتبع الجزيري المحضر الذي انتهى إليه مجلس العلماء والقضاة بالنقد معيدا الإجماع الذي انتهوا إليه إلى أنه موافقة على «مضمونه بناء على الصفات المشروخة فيه» والتي أكد الجزيري على أنها «لا حقيقة لها» مشيرا على أن معظم الذين اجمعوا على تحريمها «عارفين بحقيقة الحال بل من شراب القهوة المواظبين عليها» وأعاد ما أجمعوا عليه إلى خوفهم من خاير بك «لأنه كان متعصبا في المسألة جدا» مشيرا إلى أنه كان «سفيه اللسان جريئا على القضاة وغيرهم من الأعيان»(5)،

وتحدث الجزيري عن اللغة التي كتب بها المحضر فقال: «لا يخفى ما في عبارة هذا المحضر من التكلف والتصنع بالكلمات الحشو التي لا مدخل لها في المقصود بوجه، وإنما هي مجرد ترهات وتنميق تمويهات تنبئ عن زيادة في التعصب والتصلب، كقوله: إنه صلى العشاء الآخرة مع الجماعة، إلى قوله: ثم توجه إلى بيته، وكقوله: فلما علم أنكره خاطره، إلى آخر رواية الحديث، وكقوله: إنه وجد شيئا يتعاطونه على هيئة المسكر، فأوهم بتنكير الشيء أن الأمير كان خالي البال عنه بالكلية، وأكد ذلك بعده كقوله: أن الأمير سأل عنه فقيل: إن هذا شراب قد اتخذ في هذا الزمان، إلى آخره، كأن الأمير لم يطلع عليها، بل ولا سمع اسمها مطلقا قبل ذلك ولا سمع باسم البنّ إلا في هذا الوقت» ويعلق الجزيري على ذلك مؤكدا أن البنّ «وُجِد بمكة وغيرها قبل القهوة بسنين كثيرة لأن الحبشة تعانيه في بلادها للتنقّل به دون القهوة، وكان قشره يرى في القمامات بمكة قبل اشتهار القهوة، كما هو مشهور جدا، فدعوى خفاء ذلك من أعجب العجب ومن أكبر التلبيسات والإيهامات الباطلة التي تنادي بالزور والكذب من كثب، كيف والأمير خاير بك محتسب مكة الذي وظيفته الفحص العام عن كلّ ما يباع في الأسواق من المأكولات والمشروبات، والتجسس عن أحوال الناس ليلا ونهارا»[6]، وتعرض الجزيري للشهود الذين جاء في المحضر أنهم استعملوا القهوة فتغيرت حواسهم وأنكروا هيئتهم وتغيّر عقلهم مشيرا على أنهم «رجلان

فقط، احدهما عامي محض سُقطي في المسعى يدعى خرية برية، والثاني رجل أعجمي من بلد الحكيمين ومتردد عليهما يُسمّى بحافظ، وقد ألبسهما زِيّ الفقهاء إيهاما أنهما من أهله لتروج شهادتهما» وأضاف الجزيري: «ويقال إنهما أُرشيا على ذلك»[7].

(3)

ويمكن لنا أن نعيد الموقف المتشدد من القهوة إلى أسباب سياسية تتصل بالأوضاع المضطربة في مكة آنذاك من ناحية، وتتصل من ناحية أخرى بالعلاقة بين دولة المماليك، التي كانت تخضع لها جدة ومكة، واليمن التي كانت مصدر القهوة وكان أبناؤها هم القائمين على تجارتها، فقد كانت مكة تحيى آنذاك حقبة من الصراع بين أبناء الشريف محمد بن بركات، ولم يستطع الشريف بركات بن محمد بن بركات الذي وافقت مصر على تعيينه خلفا لوالده الذي توفي سنة 903 من الهجرة أن يحفظ لمكة استقرارها فظلت مسرحا للحروب التي قادها ضده أخوته هزاع وأحمد جازان وحميضة، وتمكنوا من إخراجه من مكة وتولي الأمارة فيها، كما ظلت مسرحا لهجمات القبائل و لعساكر الذين كانوا «يعبثون في مكة فيفعلون أفعالا قبيحة وينتهكون حرمة البيت ويصادرون أموال الأهالي ويسْبون الأرقاء وأمهات الأولاد وينهبون بيوت التجار»[8] ولم يكد يستقر الأمر للشريف بركات إلا سنة 909، وذلك بعد وفاة أخويه هزاع

وأحمد جازان وفرار حميضة من مكة، وقد عمد إلى استخدام الشدة والحزم ليحافظ على الاستقرار، فجرد سنة 913 حملة على بعض القبائل التي نهبت بيوت مكة، كما ضرب أعناق جماعة من الخارجين الذين كانوا يفرضون إتاوات خاصة على قوافل الحجاج، وبلغت عمليات الضبط غايتها فيما كان يقوم به المكلف بأعمال النظافة آنذاك من مرور في شوارع مكة وأزقتها فإذا وجد تحت بيت أحدهم شيئا من القمامة دعا صاحب البيت، وأمر بضربه على رجليه[9].

وفي ظل هذه الظروف يمكن لنا أن نتفهم التحفظ على الاجتماعات التي كانت تتم في بيوت القهوة وما يمكن أن تثيره من لغط وما تغري به من أحاديث حول الفتن التي شهدتها مكة وعمليات الضبط التي تتم من أجل إعادة الاستقرار لها، وحسبنا هنا أن نستعيد ما ورد في المحضر من إشارة إلى أن الطبيبين اللذين تحدثا عن إفساد القهوة للبدن، وذهب الجزيري إلى أنهما هما من كانا يقفان خلف الإنكار لها والحملة عليها، هما الطبيبان اللذان كانا يتوليان علاج الشريف بركات بن محمد وولده معز الدين قايتباي.

أما ما يتصل بالعلاقة بين المماليك واليمن في تلك الفترة فهو تلك الحملة التي قادها حسيين كردي حاكم جدة بموافقة السلطان الغوري لحماية الشواطئ من المد البرتغالي الذي بات يهدد عددا من مدن ساحل البحر الأحمر، غير أن الحملة ما لبثت أن توجهت نحو اليمن بعد رفض سلطانها المشاركة في

تمويل الحملة، وتمكن عسكر حسن كردي من دخول عدد من المدن اليمنية ونهب بيوتها وفرض الضرائب على الناس فيها بعد معارك عنيفة راح ضحيتها عدد كبير من الجنود اليمنيين والأهالي[10].

في ظل هذه الأوضاع يمكن لنا أن نتفهم تلك النظرة المتوجسة للقهوة القادمة من أرض اليمن، والتي يقوم على جلبها تجار يمنيون، كما يقوم بطبخها وتقديمها للناس في بيوت القهوة المنتشرة في جدة ومكة عمال يمنيون، على نحو من شأنه أن يجعل قرار إغلاق بيوت القهوة ومنع شربها وحق مستودعات ومخازن البنّ قرارا أمنيا من ناحية كما هو قرار اقتصادي يستهدف ضرب مجال العمل لرجال ينتمون لدولة معادية.

(4)

لم يكن رد سلطان مصر قانصوه الغوري على المحضر الذي أرسل إليه على النحو الذي كان يريده خاير بك إذ اكتفى المرسوم السلطاني بمنع التظاهر بشربها والدوران بها في الأسواق، وجاء في نص المرسوم «وأما القهوة فقد بلغنا أن أناسا يشربونها على هيئة شرب الخمر ويخلطون فيها المسكر ويغنون عليها بآلة ويرقصون ويسكرون، ومعلوم أن ماء زمزم إذا شرب على هذه الهيئة كان حراما، فليمنع شُرّابُها من التظاهر بشربها والدوران بها في الأسواق»، وقد علق الجزيري على نص المرسوم فقال: «هذه عبارة صريحة أيضا في أن النهي إنما هو على حسب آلاتها، ومع ذلك فليس فيها ما يدل على المنع من شربها بوجه، بل من التظاهر به ومن فعله على الهيئة المخصوصة التي بلغتهم فقط، وذلك لا يدل على حرمة ذاتها التي هي مرادهم»[11]

وتأكيدا على أن المرسوم السلطاني لم يحرم القهوة أشار الجزيري إلى أن السلطان لم يمنعها من مصر التي «هي محل

الكرسي والولاية» معللا منعه التظاهر بشربها بأنه من «باب سد الذريعة مخافة أن تشرب على تلك الهيئة الممنوعة»[12].

غير أن محضر علماء مكة الذي لم ينجح في استصدار مرسوم سلطاني يقطع بتحريم القهوة نجحت صيغة السؤال الذي أرفق به في استثارة نظرائهم من علماء الحواضر العربية المقيمين في مصر ضدها بما استدرجهم له من استفتاء عن الحكم في «المشروب الذي يقال له القهوة شاع شربه بمكة المكرمة وغيرها، يتعاطونه في المسجد الحرام وغيره، يدار بينهم بكأس من إناء آخر، وقد أخبر خلق ممن تاب عنه بأن كثيره يؤدي إلى السُّكْر، وأخبر عدول من الأطباء بأنه مضر بالأبدان، وقد منع من شربه من يعتد بقوله من العلماء بمكة والزهاد بها.... أفتونا مأجورين وابسطوا الجواب»[13].

وعلى الرغم من أن المحضر آثر أن يبدو اجتماع العلماء وكأنما قد انفض عن إجماع لم يشبه اختلاف وأن أحدا من المجتمعين لم يتحفظ على ما انتهوا إلية من رأي، إلا أن الجزيري ذكر أن الشيخ نور الدين ناصر الشافعي مفتي مكة ومدرسها وواعظها تصدى لمعارضتهم فيما انتهوا إليه، وذكر الجزيري أنه سمع بسبب ذلك ما لا يحب «بل كفره بعض أهل المجلس من أجل كلام صدر منه في أثناء البحث في غاية الصحة لا محيص عنه أصلا فضلا عن أن يترتب عليه أدنى محذور»[14].

وقد استثمر السؤال الذي أرفق بالمحضر هذا الاختلاف

فأشار إليه وفق صيغة من شأنها أن تستدرج صاحب القرار والعلماء إلى موقف أكثر حزما يحولون به دون استفحال الإقدام على تعاطي الناس شرابا منكرا يبيحه لهم بعض من يراهم هؤلاء الناس من العلماء، كما استهدفت صيغة السؤال الوصول إلى إجابة تشكل ردعا لكل من يجول بخاطره من العلماء أن ينحرف عما توصل إليه المجتمعون من حكم الاجتماع لشرب القهوة وتعاطيها، وقد تضمن السؤال المرفق للمحضر استفتاء في حكم من خرج عما أجمع عليه المجتمعون والموقف الذي ينبغي أن يتخذه ولي الأمر منه، وجاء السؤال في صيغة تحريضية واضحة تقول: «. . .وهناك شاهد جاهل جعل نفسه واعظا وأفتي الفُسّاق بحل شربه، فقيل له: ما تقول في هذه الإدارة على هذه الصفة، فقال: الشارع أدار اللبن، فقيل له: أخطأت لم تكن إدارة اللبن على هذه الصفة، فهل يحل شربه على الوجه المذكور، أم يحرم مطلقا لكونه مسكرا ومضرا بالأبدان، وماذا على هذا الجاهل المبيح لشربه، وهل يجب على وليّ الأمر، أيده الله تعالى، إزالة هذا المنكر والمنع منه، وردع هذا الجاهل ومن يقول بقوله أم لا»[15].

لم تكن صيغة الاستفتاء، وقد جاءت على هذا النحو، تسعى لمعرفة حكم الشريعة في القهوة فحسب، بقدر ما كانت تهدف إلى الوصول إلى تأييد لما انتهى إليه المجتمعون يحول دون أي خروج عنه يوهن من قوته أو يدخل الشك فيما تم القطع به، كما يهدف الاستفتاء إلى الوصول إلى تفويض كامل

لوليّ الأمر يحق له معه أن يردع من تسول له نفسه الخروج عما انتهى إليه المجتمعون من حكم في كيفية شرب القهوة من ناحية وفي القهوة نفسها من ناحية أخرى.

وقد تحقق لصيغة السؤال ما استهدفته من إيقاع بمن خالف وخرج عن القول بتحريم القهوة، فكان إنكار العلماء لما ذهب إليه من حِلّ القهوة أشدَّ من إنكارهم لشرب القهوة، ومطالبتهم بردعه اشد قسوة من المطالبة بمعاقبة من يشرب القهوة، من ذلك ما أجاب به شيخ الإسلام برهان الدين ابن أبي شريف المقدسي حين كتب: «الحمد لله الهادي إلى الصواب، يحرم شرب القليل منه، ويحدُّ من شرب منه شيئا، ولقد أخطأ هذا الجاهل الذي سمّى نفسه واعظا من وجوه: منها أنه خالف الشارع: ما أسكر كثيره فقليله حرام، ومنها: إن إدارة ذلك تجاهر بالفسق، ومنها: تشبيه ذلك بإدارة الشارع اللبن، ولقد اجترى في دين الله تعالى، وربما يؤدي إلى الكفر، ومنها: تحسينه شرب الفساق وإباحته لهم حتى يتعاطونه بأشرف البلاد وأشرف الأماكن، ولقد أدخل هذا الفاسق المجتري على عباد الله الضررَ الكثير في أديانهم وأبدانهم، فالواجب على ولاة الأمور القائمين بنصرة الدين إنزال الهوان بهذا الإنسان الذي أفحش وأطلق في إفحاشه اللسان، وكان مما ختم به على الجَنان، وسعى فيما يبعده عن الجِنان، ويجب إظهار النداء بضلاله، وتحذير الناس من إضلاله، وتوعّد من يفعل ذلك، فإنه من أقبح المسالك، ويجب المبالغة في تعزيره بما يكون

زاجرا له ولغيره ممن يفعل ذلك، ويؤمر بالضرب والحبس، ويمنع من الوعظ والكلام على الناس، ومن لم يراعِ حفظ عقله بل سعى في استعمال ما يضر به ويحجبه عن الإدراك لم ينفع نفسه، فكيف ينفع الناس».

وكتب شيخ الإسلام كمال الدين الطويل القادري الشافعي: «الحمد لله، اللهم اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، لا يحل شرب المذكور إذا كان كثيره يسكر، وإن لم يكن مسكرا تحرم إدارته على هيئة إدارة الشراب، حتى ولو كان ماء، وقد أخطأ الشاهد المذكور، ويجب عليه أن يتوب منه، فإن عاند أُدِّب، ويجب على ولي الأمر أيده الله تعالى إزالة المسكر المذكور والمنع منه، وردع الجاهل المذكور ومن يقول بقوله».

وكتب قاضي القضاة سري الدين عبد البر ابن الشحنة الحنفي: «الحمد لله، لا يحل شربه مطلقا قليله وكثيره على ما هو المختار من مذهبنا حيث أدى إلى السكر، وحصول الضرر بشربه مقتضٍ آخر للمنع منه، وشربه على هذا الوجه منه في الاجتماع عليه مقتضٍ للحرمة لو لم يكن مؤديا للسكر كما هو منصوص أئمتنا رضي الله عنهم، وأما هذا الجاهل المجتري على الدين المتكلم في شرع الله بما لا يدريه، المستدل بما ذكر من إدارة اللبن، القائل بإباحته وبتعاطيه على الوجه المذكور فمستحق التعزير البليغ والتنكيل الشديد بالضرب الوجيع والحبس المردع، تحذيرا من الاجتراء على السنة الشريفة المطهرة، وتجسير العوام الجهلة مثله على تعاطي الحرام،

وانتهاك حرمة الملك العلام، وبيان ولي الأمر، أيده الله تعالى وأيد به الدين، على المنع ممن شرب ما ذكر، ومنع المتكلم المذكور وأضرابه ومن يقول بقوله، بل يجب عليه ذلك حسما لمادة الفساد من بين العباد، وزجرا لأهل العناد، والله الهادي إلى سبيل الرشاد».

وكتب قاضي القضاة شرف الدين يحيى الدميري المالكي: «الحمد لله، اللهم أرشدني للصواب، حيث كان هذا المشروب مما يُسكر كثيره حرم قليله، خصوصا بتلك الأماكن الشريفة، وانضمام الهيئة لأهل الفسق من الإدارة وغيرها، وحينئذ والقائل بجواز ذلك، والحالة هذه، جاهل متجرٌ حريٌّ بالتأديب الشديد الرادع له».

وكتب قاضي القضاة شهاب الدين أحمد الشيشيني الحنبلي: «الحمد لله الهادي للصواب، حيث كان الشراب المذكور يسكر كثيره حرم قليله وكثيره، ووجب على شاربه الحد، والذي أحل شربها بغير تأويل كافر»[16].

(5)

ولم يجد المنتصرون للقهوة بدا، وقد انتهى بهم الأمر إلى المنع مما كانوا مقبلين عليه، من مواجهة السؤال الذي أفضى إلى القطع بالتحريم بسؤال مقابل يمكن له أن يقود إلى حكم مناقض يَنفُضُ عن القهوة ما لحق بها من شبهة قادت إلى اشتباهها بالخمر وأفضت بها إلى التحريم، وأن يستعينوا على العلماء الذين قطعوا بتحريمها وجرموا من رأى حِلَّها بعلماء آخرين تكون لهم من المكانة ما يجعل لما يمكن أن يفتوا به من حِلّ القهوة القدرةَ على أن يحول بين من يتعاطونها وتطبيق حد شرب الخمر عليهم.

جاءت صيغة السؤال الذي كان يهدف إلى استنطاق المسؤولين بفتوى يرون فيها حل القهوة على النحو التالي «ما قولكم، رضي الله عنكم، في ماء يغلى فيه قشر حب يقال له البنّ، يسمى هذا الماء قهوة، هل شربه حرام لقول من لا ثقة بقوله إنها تضر بالعقل والبدن أم لا»، وجاء السؤال في صيغة أخرى استهدفت القول بحِلِّ القهوة بعد تبرئتها مما ألحق ببيوت

شربها من لهو وما لحق بها من شبهة الإدارة على صورة الخمر والإشارة إلى استخدام العباد والزهاد لها في مجالس العلم والذكر وقراءة القرآن وكذلك ذكر بعض الفوائد الطبية لها «ما قولكم في استعمال القهوة المتخذة من البن وقشره، وصفتها أن يؤخذ قدر معلوم من البن وقشره ويغلى في ماء إلى أن يخرج خاصيته في الماء ثم يصفى ويفتر ويشرب من غير إدارة ولا ملاهي ولا غناء ولا آلة طرب ولا جمْع منكر، بل ربما وقع في مجال استعمالها جمْع خيرٍ كصلاة وقراءة القرآن وذكر والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وقد جرب استعمالها أقوام عند حدوث أمراض لهم كصداع من برد وتجفيف للرطوبات المفرطة وإدمال الباسور وغير ذلك من الأمراض، هل هي حلال على هذا الوجه وأشباهه أم حرام...»

وقد نجح السؤالان في الظفر بفتاوى علماء رأوا حل القهوة في حد ذاتها، وحصروا القول بالتحريم فيما أحاط بها من شبهات تتصل بمجالس شربها، فكتب العلامة شمس الدين أحمد الرملي الشافعي: «...يحل شربها لأن الأصل في الأعيان الحل، لأنها مخلوقة لمنافع العباد... ولأنها غير مسكرة ولا مخدرة»، وكتب الشيخ شمس الدين الدلجي الشافعي: «القهوة المذكورة، إن انتهت إلى حيث يسكر شاربها فلا اختلاف في أن شربها حرام كالخمر لاشتراكهما في الإسكار، وإن لم تنتهِ إلى حيث تسكر شاربها فليست بحرام، إذ لا موجب لتحريمها، إلا أن تشرب على طريقة شَرَبَة المسكر،

فتعاطيها على تلك الطريقة إدارة الكأس على الجلاس هو الحرام . . . وأما القول إنها حرام مطلقا فمن باب تحريم الحلال بلا موجب لتحريمه ومجرد مكابرة وعناد ولزوم غلط»[17]، وذهب عدد آخر من العلماء إلى مثل ذلك من القول بجواز شرب القهوة على نحو من شأنه أن يكشف لنا عن أن المسألة لم تعد متعلقة بالقهوة بقدر ما هي متعلقة بالتصور الذي يتحكم في صيغة السؤال الذي يتم طرحه حولها وأن الفتوى لا تتصل بالموضوع الذي وقع الخلاف حوله بقدر ما هي فتوى متصلة بالكيفية التي يتم من خلالها طرح الموضوع على من يراد استفتاؤه فيه.

(6)

بقيت القهوة معلقة بين إقبال بعض الناس عليها وانصراف آخرين عنها في ظل اختلاف العلماء في حكمها والعجز عن الوصول إلى رأي فصل فيها، وظل القطع بأمرها موضع اجتهاد من قبل الأمراء يطاردون من يشربونها حينا، ويغضون الطرف عنهم حينا آخر، إلى أن انتهى الأمر إلى ما يشبه الفتنة، وذلك سنة 941 حين سئل الشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد الحق السنباطي الشافعي أثناء مجلس وعظه بالجامع الأزهر عن حكم القهوة، فأفتى بحرمتها، «فتعصب جماعة من العوام لما سمعوا ذلك منه، وخرجوا إلى بيوتها من تلقاء أنفسهم من غير أمر حاكم بل لمجرد الخصلات العامية، فكسروا أوانيها، وضربوا جماعة ممن هناك، فقام بسبب ذلك فتنة كبيرة وتعصبات ممن يقول بالحل والحرمة شهيرة، واحتيج إلى الاستفتاء أيضا»[18].

وحين بلغ الأمر قاضي مصر الشيخ محمد بن الياس الحنفي «سأل عن حكمها جماعة من علماء القاهرة المفتين، واعتمد على إفتاء من قال بحلها من العلماء المعتبرين، ثم

استظهر على ذلك فأمر بطبخها في منزله، وسقى منها جماعات بحضرته، وجلس يتحدث معهم معظم النهار ليختبر حالهم، فلم ير منهم تغيّرا ولا شيئا منكرا، فأقرها على حالها»[19].

وما قام به قاضي مصر محمد بن الياس الحنفي قام به من قبل الشيخ الطبنداوي البكري الصديقي الذي تولى التدريس في مدارس زبيد، فحين كتب إليه المولعون بالقهوة يستفتونه، بعد أن شاع القول بحرمتها، أمر بإعداد القهوة وأحضر جماعة من شُرّابها وسألهم عن أثرها، ثم سقاهم وحادثهم، ثم زاد كمية القهوة لهم، وكرر ذلك فلم ير منهم إلا انبساطا قليلا، فأفتى بحلها[20].

المراجع والإحالات

(1) الجزيري: المصدر السابق - ص 94.

(2) المصدر نفسه - ص 95، 96.

(3) المصدر نفسه - ص 75.

(4) المصدر نفسه - ص 100.

(5) المصدر نفسه - ص 96.

(6) المصدر نِفسه - ص 97.

(7) المصدر نفسه - ص 100.

(8) أحمد السباعي : تاريخ مكة : دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران - ج الأول- ص 300 طبعة الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة - 1419-1999.

(9) المصدر نفسه - ص 359.

(10) جيرالد دي غوري: حكام مكة 137-ترجمة محمد شهاب- مكتبة متبولي - الطبعة الأولى - 1420-2000.

(11) الجزيري : المصدر السابق - ص 104.

(12) المصدر نفسه - ص 105.

(13) المصدر نفسه - ص 103.

(14) المصدر نفسه - ص 96.

(15) المصدر نفسه - ص 103.

(16) المصدر نفسه - ص 107- 113.

(17) المصدر نفسه - ص 115 - 117.

(18) المصدر نفسه - ص 82.

(19) المصدر نفسه - ص 82.

(20) محمود مفلح البكر: المصدر السابق - ص 45.

الفصل الخامس

ما تحت القشرة..

انطوى تاريخ القهوة، لم تبق منه إلا صفحات لا يكاد تاريخ القراءة يلقي لها بالا، ومدونات توشك ألا تخرج عن العناية بما هو مستطرف من الأنباء والأحداث، دون النظر إلى ما هو وراء ذلك مما يمكن عده أكثر سبرا لأغوار الأمة وتفسيرا لما يحكمها من قيم وأعراف، وتحرص عليه من عادات وتقاليد.

انطوى تاريخ القهوة وبقيت القهوة، بقيت متكتمة على أسرارها وعوالمها، تلوح تارة فيم تتلبسه من معجم يفوح توقا وشوقا للخروج من حيز الإمكان وولوج بوابة المستحيل وكسر حمى الممنوع، وتلوح تارة أخرى فيما تشي به العادات والتقاليد التي تحف بها من بقايا ما مر بها من تاريخ المنع والفسح وأحكام التحريم والتحليل، وتارة ثالثة فيما تكاد تفصح عنه مجالسها من منازل أقوام داروا حول نارها حين كانت تشب ومقامات جماعات تعاطت فناجينها حين كانت تدار.

(1)

نبتة البن، التي استدعى شاربوها مسمى «القهوة» بعد أن غابت القهوة، التي عرفها العرب قديما كاسم من أسماء الخمر، بالتحريم، فيما غيب الهجران وعدم التداول مسماها أو وصفها الذي نُزِّل منها منزلة الاسم، هذه النبتة التي استدعت اسم القهوة لم تلبث أن انتزعت لنفسها صفات التصقت بها التصاق الاسم بالمسمى، من أشهرها: الشاذلية والكيف، وإذا كان الأول ينزع بنسبها إلى واحد ممن ينسب إليهم فضل اكتشافها وتعريف الناس بها، فإن الثاني يحيل إلى الأثر الذي تتركه على شاربها، أو ما كان يلتمسه فيها من يتعاطاها من أثر.

والشاذلي الذي حملت القهوة أبوّتَه لها حين نُسِبت إليه هو علي بن عمر الشاذلي أحد كبار متصوفة اليمن في القرن التاسع، وقد عُدّ اكتشافه القهوة أحدَ فضائله التي أُخِذت عنه بالاعتقاد والمزية، يقول البريهي: «إن الشيخ علي الشاذلي هو الذي أظهر قهوة البن ونشر فضلها واتخذت عنه بالاعتقاد والمزية»[1]، ونسب عبد الرحمن بن محمد العيدروس في كتابه «أنفاس الصفوة» اكتشاف القهوة للشاذلي حين تحدث عن ظهورها

فقال: «إن أول حدوثه، أي مشروب القهوة، أول القرن التاسع وأواخر القرن الثامن باليمن المبارك، ومنشأه الشيخ الإمام الحجة الهمام صاحب المناقب الفاخرة علي الشاذلي بن عمر الشهير بدعسين صاحب المخا وحليف السخا، ولقد غدا إبداعه من جملة فضائله العظمى»[2]، ونقل الجزيري في «عمدة الصفوة» عن فخر الدين أبو بكر أبي اليزيد المكي قوله: «إن أول من أنشأها وأظهرها وبأرض اليمن أشاعها وأشهرها سيدنا الشيخ العارف بالله تعالى علي بن عمر الشاذلي أحد تلامذة سيدنا الشيخ العارف بالله تعالى ناصر الدين ابن الميلق أحد السادة المشايخ الشاذلية»[3].

وتسمية القهوة بالشاذلية ليست مجرد تعريف بها، أو اسم مرادف يمكن له إذا أطلق أن يحيل إليها كما يمكن أن يحيل إليها أي اسم آخر يحل محله، بل هو تأصيل لنسبتها إلى من اكتشفها على نحو يجعل منها حاملةً لفضائله مَوصولةً بما كان معروفا عنه ومتصلا به من مزايا ومناقب، كما أنها تسمية تحمل إشارة تدل على تلمُّس الطريق إلى الاتجاه الصوفي الذي عُرفت به طريقته والالتحاق بجملة المريدين فيه، كما أن في هذه التسمية ارتقاءً بالقهوة عن التسمية التي يشوبها المعنى القديم المحيل على الخمر، وتنزيها لها عما لحق بها من شبهات حين خرجت عن دائرة العُبّاد والمتصوفة الذين كانوا يشربونها وشاع تعاطيها بين العوام الذين ابتذلوها واستحلّوا في مجالسها المحرمات وخلطوها بالمسكرات[4].

وتنزع تسمية القهوة بالكيف إلى ما تتركه من أثر في نفس شاربها، أو ما كان شاربها يتوخاه من تأثير لها عند شربه لها، وهو ما تمت تسميته، لدى من خبروا تأثيرها عند الاحتجاج لها ونفي أن تكون شرابا مسكرا، الروحنة حينا، وحينا المرقحة، وذلك في تحديد تأثيرها الذي ميّزوه عن تأثير الخمر من ناحية، ولمسوا فيه ما لا يمكن للماء أن يتركه من أثر، يقول ابن عبد الغفار: «أهلها يطبقون على أن فيها معنى يسمونه مرقحة بفتح الميم والقاف والحاء المهملة وسكون الراء وآخره هاء التأنيث، وهي لغة يمنية، وهذه المرقحة مما علم وجوده والتجربة في حق المباشرين لشربها وبتواتر النقل عنهم أيضا في حق من لم يشربها، وحقيقتها ما ذكره علامة عصره الشيخ شهاب الدين المزجد، في فتواه السابقة أنه يحصل لشاربها من النشاط والروحنة وطيب الخاطر، قال: وذلك لأن من خواصها المشاهدة فيها والتي لا يمكن إنكارها، أن البدن يجد منها خفة عظيمة فتنشطه وتذهب عنه النعاس سواء كان الوقت ليلا أو نهارا»(5) وقد وصف ابن عبد الغفار ما يعرض لشارب القهوة من أثر بأنه تغيير في الجملة حين قال: «شارب القهوة يجد من نفسه بعد شربها حالة لم يجدها قبله، كانت عبارة عن نوع من التغيير في الجملة، وإن كان قليلا في حد ذلك لم يحصل للعقل منه غيبة مطلقا»(6).

وكما يتصل مفهوم الكيف بالروحنة والمرقحة فإنه لا يبرأ في الوقت نفسه من الاتصال بما آلت إليه القهوة حين انتهى

أمرها إلى مزجها بالمسكرات وتعاطيها في بيوتها التي كانت مواضع للهو والغناء ولعب الشطرنج واجتماع الرجال والنساء، وهي الأمور التي يمكن لها أن تندرج تحت ما يمكن أن يكون مما يتم تعاطيه للدخول في حالة من اعتدال المزاج واستشعار النشوة وإعطاء النفس فسحة تستريح فيها مما يعلق بها من هموم، والذي يمكن أن يوجز في كلمة «الكيف».

ولا تزال اللهجة الشعبية في جدة ومكة المكرمة تحتفظ بكلمة تتصل بالتاريخ الذي لم تكن فيه القهوة بعيدة الصلة بالخمر وذلك حين يقال في وصف الرجل السكران بأنه «متقهوي» أو يوصف بأنه «شارب فنجان»، ويتم إدراك الفرق في المقصد بين أن يكون شاربا للقهوة أو شاربا للخمر من خلال السياق الذي ترد فيه الكلمة أو يتم فيه الوصف.

وحين عرف أهل البادية القهوة احتفوا بما تتركه من أثر في نفس شاربها، فهي وسيلة لطرد الهموم واجتلاب «سيحة البال» ومنادمة الأصدقاء ومسامرة الضيوف، وجعلوا للكيف منزلة لا يستحقها إلا الكريم والشجاع من الرجال[7].

(2)

بين إدارة اللبن حسب السنة النبوية من اليمين إلى اليسار[8]، وإدارة الخمر من اليمين إلى اليسار كذلك حسب العرف العربي القديم الذي أحال إليه عمرو بن أم كلثوم حين قال:

صددت الكأس عنا أم عمرو
وكان الكأس مجراها اليمينا

بين الخمر واللبن اتخذت القهوة مسار صبها وإدارة فناجينها على الجالسين في مجالس شربها، فاعتبر المنافحون عنها في الاقتداء باللبن فضلا يُعدّ من فضائل شربها، واعتبر المرتابون فيها تلك الطريقة في إدارتها شاهدا على ما كانوا يرونه من أن تعاطيها إنما يتم على هيئة تعاطي المسكر.

ويبدو أن لكل من الفريقين وجهة نظره التي يمكن له أن يقيم الحجة عليها وذلك انطلاقا من رصده للبيئة التي يتم شرب القهوة فيها، وإذا كان المنافحون عن القهوة قد رأوا في إدارة شرب القهوة باليمين حين تدار فناجينها في بيئة العباد من الزهاد

والمتصوفة اقتداء بالسنة النبوية، فإن المنكرين لأمر القهوة لم يروا في البدء باليمين غير استعادة لتقليد شرب الخمر وتمثلا بقول أبي نواس حين قال:

أدر الكأس يمينا لا تدرها ليسار
اسق هذا ثم هذا بأباريق العقار

وليست تلك الاستعادة لتقليد شرب الخمر مستبعدة ما دامت فناجينها تدور في مجالس طرب ولهو وغناء ورقص واجتماع رجال ونساء وما دام شرابها يخلط بالمسكرات[9].

وإذا كان البدء باليمين ظل مصدر خلاف في تأويله فإن البدء باليمين ظل، كذلك، مصدر إشكال في تعارضه مع تراتبية المقامات في المجلس العربي والذي يعتبر وسطه أو الصدر منه مكانا لجلوس كبار القوم وسادتهم، وهم الأولى بالتقديم ممن يجلس في طرفي المجلس يمينا أو يسارا، على نحو يجعل من تقديم القهوة بدءا من اليمين كسرا لقاعدة المقامات، فلا يغدو معها الشيخ أو السيد الجالس في صدر المجلس هو الأولى بالتقديم والتقدُّم، بل الجالس في يمين المجلس أيا كانت منزلته وأيّا كان مقامه، وإذا كانت مجالس العباد والزهاد قد تقبلت ذلك انطلاقا لما تستند إليه من رؤية تنظر إلى الناس باعتبارهم سواسية وتقتدي بالسنة النبوية التي تساوي بين الناس حتى يغدوا كأسنان المشط، فإن خروج القهوة عن دائرة هؤلاء العُبّاد وشيوع تناولها في مجالس البادية على وجه الخصوص جعل من تقديمها بدءا من اليمين أمرا مثيرا للقلق حين يتقدم في تناولها

من هو أقل منزلة ومكانةِ وشرفا على رؤوس القوم من شيوخ العشائر والفرسان وكبار السن وذلك لمجرد جلوسه في طرف يمين المجلس، وهو الموقع البعيد عن صدر المجلس والدال على تواضع مكانة الجالس فيه، وحين كانت البادية تقول في تحديد من هو الأولى بالتقدم في تناول القهوة «على اليمين لو أبو زيد جالس» أو «على اليمين لو أبو زيد على اليسار» فإنها بذلك لا تشرِّع طريقةَ شرب القهوة بقدر ما تُذكِّر بالتشريع الذي فرض قاعدة جديدة تخالف ما كان الواجب إتباعه، وفي ذلك التذكير حفظ للمقامات التي تم التغاضي عنها أو تجاهلها عند البدء باليمين، فأبو زيد، وهو الشخصية التي ترمز للكبير من القوم سواء كان فارسا أو زعيما، يتم التذكير به من خلال تلك الكلمة «أبو زيد جالس» تذكيرا يتنزل منزلة الاعتذار منه والتأكيد على أن من تم تقديمه عليه من الجالسين على يمين المجلس ليس هو «أبو زيد» الأولى بالتقديم والتقدُّم على من سواه.

وإذا كانت قانون بدء صب القهوة باليمين كسَرَ القاعدة التي يتم بها تحديد المفاضلة بين الجالسين، فإن البادية لم تلبث أن استثمرت هذا القانون الجديد الطارئ لتكريس قِيمِها واستعادة قوانين المفاضلة وإعادة الاعتبار لمن هو أولى بالتقديم وذلك حينما جعلت «تعدية الفنجان»، أي تجاوز من يَصُبُّ القهوةَ لدور من كان من المفروض أن يصبها له وتقديمها لمن يليه في الجلوس، علامةً على الاستهانة به والتقليل من قدره، أو إعادة تنزيله منزلته من التأخر عمن هم أولى منه بالتقديم من الفرسان وشيوخ العشائر، فإذا كان للقهوة نظامها فإن للبادية أعرافها التي

يمكن لها أن تحتوي نظام القهوة وتعيد توظيفه لتكريس قيمها ومعاييرها التي يتم التفاضل بين الرجال بناء عليها[10].

وفي محاولة للتوفيق بين قانون تقديم القهوة بدءا من يمين المجلس، والأعراف التي تجعل الأكبر سنا والأعلى مقاما من الجالسين في صدر المجلس أولى بالتقديم، يقوم من يتم تقديم القهوة له، بحكم جلوسه على يمين المجلس، بالتنازل عن دوره والإشارة لمن يصب القهوة بتجاوزه وتقديمها لمن يرى أنه أولى منه بالتقديم سواء كان أكبر منه سنا أو أرفع مقاما، وعلى من يصب القهوة أن يكون من الفطنة بحيث يدرك من عناه المتنازل عن دوره فإذا بلغه وصب له القهوة عاد إلى ذلك المتنازل عن دوره وصب له القهوة، وإذا كان العرف يدل على أن «تعدية الفنجان» إنقاص من قدر من يتم تجاوزه، فإن تَقَبُّل أخذ الفنجان ممن يصب القهوة يعني سوء أدب ممن يتقبله إذا كان هناك من الجالسين بعده من هو أولى منه بالتقديم، وهذا يعني أن من يصب القهوة يخضع لنظامين في وقت واحد، أولهما نظام القهوة وما يفرضه من بدء باليمين، وثانيهما نظام العرف الاجتماعي الذي يصحح به من يتم تقديم القهوة له نظام تقديم القهوة حين يتنازل عن دوره لمن هو أولى منه، وبذلك يتحقق التوفيق بين النظام المستند إلى البعد الديني للقهوة والعرف الاجتماعي المحدد لمكانة الجالسين، دون أن يفقد أي منهما مكانته ودون أن ينال أي من الجالسين في مجالس القهوة ما يمس قدره أو ينزل من شأنه.

(3)

وإذا كان تاريخ القهوة قد أوشك أن ينسى البيئة الدينية المتصلة بالتصوف وأهله الذين نشأت القهوة بينهم وشاع تداولها في أوساطهم وارتبطت مقاصد شربها بمقاصدهم سهرهم من أجل العبادة والذكر فإن ما يصاحب تقديمها من طقوس وآداب ظل وفيا لتلك النشأة معيدا، في كل مرة يتم تقديمها فيها، ما كان يدور حولها من عبارات التسمية والذكر والصلاة على النبي، وقد جرت العادة في مناطق الحجاز، على سبيل المثال، أن يطلب من يصب القهوةَ ممن يتناولها أن يصلي على النبي عندما يمد يده لتناول فنجانها فيهتف به وهو يمد له الفنجان: «صلي على النبي»، كما يطلب ممن يصب له بعده أن يكرر الصلاة على النبي فيقول له: «زيد النبي صلاة» وعلى من يتناول الفنجان أن يستجيب للطلب فيقول: «اللهم صلي وسلم على نبينا محمد»، ومن شأن تلك المقدمات أن تؤكد ما للقهوة من مكانة خاصة تستوجب صلوات محددة تؤهل من يتناولها للدخول في طقسها والقيام بواجبها، وفي منطقة نجد،على سبيل المثال كذلك، تتغير العبارة ويظل الطقس قائما، فمن يصب القهوة يطلب ممن

يمد له الفنجان أن يسبق تناوله لها بالبسملة هاتفا به: «سَمْ»، أي قل باسم الله، ولعل الفرق بين الدعوة إلى الصلاة على النبي في الحجاز والدعوة إلى البسملة أو التسمية في نجد يعود إلى اختلاف المؤثرات والسمات الدينية في كلا المنطقتين، فإذا كانت بيئة الحجاز قد تأثرت بالبيئة المتصوفة والتي كان لشيوخها وأتباعهم فضل نقل القهوة إليها وما كان يتبع ذلك مما يدور في مجالسها من جلسات للذكر والصلاة على النبي وإحياء للموالد فإن الاتجاه السلفي في نجد عمد إلى اتخاذ البسملة أو التسمية بديلا انطلاقا من أنها هي الأقرب لما جرت عليه السنة من البدء في كل أمر بذكر اسم الله.

وحين تعرض الجزيري لظهور القهوة في مصر رصد ما كان يُعتمد عند تناولها من طقوس، ناقلا عن ابن عبد الغفار قوله: «ظهرت في حارة الجامع الأزهر المعمورة بذكر الله تعالى، في العشر الأول من هذا القرن، فكانت تشرب في نفس الجامع الأزهر برواق اليمن يشربها فيه اليمانيون، ومن كان يسكن معهم في رواقهم من أهل الحرمين الشريفين، وكان المستعمل لها الفقراء المشتغلون بالرواتب من الأذكار والمديح على طريقتهم المذكورة، وكانوا يشربونها كل ليلة اثنين وجمعة، يضعونها في ماجور كبير من الفخار الأحمر، ويغترف منها النقيب بسكرجة(*) صغيرة ويسقيهم الأيمن فالأيمن مع ذكرهم المعتاد عليها وهو غالبا: لا إله إلا الله الملك الحق المبين»(11)

(*) الإناء الذي تعد فيه القهوة ويقابل الدلة.

وقد عد الجزيري التسمية من الوسائل التي لها حكم المقاصد وقال: «التسمية عند تعاطيها لا يبعد أن تكون مطلوبة، ولدخوله بنية العبادة في قوله صلى الله عليه وسلم : كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بباسم الله الرحمن الرحيم فهو أجذم، وفي رواية فهو أبتر، ومعنى ذي بال أي حال يهتم به، ومعنى أجذم وأبتر أي مقطوع البركة، وقصد الإعانة على الذكر والعبادة من أجل ما يهتم به»[12].

والبسملة والصلاة على النبي عند شرب القهوة امتداد للبسملة والصلاة على النبي التي يتوجب على من يقوم بإعداد القهوة أن يبدأ بها وقد جعلها الشيخ با مخرمة من شروط وآداب تهيئة القهوة للشاربين حين قال:

لقهوة البن يا نديم فبكرا
وكن بها يا فتى صبا بغير مرا
وحين يدعوك داعيها فقم عجلا
ملبيا تابعا في ذلك الأثرا
وخذ شروطا وآدابا لها وضعت
سمعا إلى قول منطيق بها اختبرا
فأول الأمر بسمل ثم صل على
محمد خير سادات الورى الكبرا
وبعد ذاك خذ القشر العزيز وكل
منه بمقدار ما للطبخ واعتبرا[13].

(4)

كان جُلّ ما استطاعه المناصرون للقهوة والمنافحون عنها أن تمكنوا من دفع ما لحق بها من فتاوى التحريم حين أكدوا بالأدلة والبراهين براءتها من أن تكون شرابا مسكرا كالخمر أو أن تكون المادة التي تصنع منها من «المصطلات» كالحشيش والأفيون والبنج، غير أنه لم يكن لهم أن يدفعوا ما لحق بالمقاهي التي كان يتم فيها تقديم شرابها من سوء السمعة، وذلك لما اشتهر عن تلك المقاهي من أنها أصبحت مواضع لارتكاب المنكرات من اجتماع الرجال والنساء للهو وما كان يحدث فيها من خلط للقهوة بالمسكرات، وقد استدعت المنافحة عن القهوة والتأكيد على حلها أن يؤكد المنافحون عنها إنكارهم ما كان يحدث في المقاهي ونصحهم الفضلاء من الناس بتجنب الجلوس فيها، وقد اجتمع بذلك على المقاهي تشدد المنكرين لها والمانعين لشربها ورفض المنافحين عنها الرافضين لما كان يدور في مجالسها من خروج على أحكام الشريعة والآداب العامة، وكان الشيخ محمد بن عراق قد أشار على الحكام، كما يقول الجزيري، بإبطال

بيوت القهوة رغم أنه يُعدّ من كبار المتصوفين وممن يرى حل القهوة في حد ذاتها[14].

وكانت الفتوى بتحريم القهوة قد أتبعت بما تقتضيه من منع بيعها وإغلاق مقاهيها ومعاقبة من يُقدِم على تقديمها للناس، يقول الجزيري متحدثا عما تلا المجلس الذي انعقد في مكة المكرمة للنظر في أمرها وما انتهى إليه من مكاتبة للسلطان الغوري في مصر يستصدرون فيه مرسوما بالمنع: «ثم لما انصرفوا من عقد المجلس أشهر لهم الأمير خاير بك النداء بالمنع من شربها وبيعها، وشدد في ذلك حتى إنه عزّر جماعة من باعتها، وكبس مواضعهم، وأخرج ما وجده فيها من قشر البن، وأحرقه وسط المسعى، فبطلت حينئذ من السوق، وكان الناس يشربونها خفية في بيوتهم اكتفاء شره، لأنه بلغهم عن شخص أنه شربها فعزره وطاف به في الأسواق»[15]، ومما رواه الجزيري عما كان يحدث لمن يتم ضبطه متلبسا بشرب القهوة أنه «بينما جماعة في بيوت القهوة يستعملونها في شهر رمضان بعد العشاء إذ وافاهم صاحب العسس ليلا، إما من تلقاء نفسه أو لأمر أوحي إليه، وأخرجهم منها على هيئة شنيعة بعضهم في الحديد وبعضهم مربوط بالحبال، فباتوا في منزل السوباشاه، ثم أُطلقوا صباحا بعد أن ضُرِب كل واحد منهم سبعة عشر ضربة»[16].

ولم يتوقف أمر إبطال بيوت القهوة عند آراء الفقهاء والعلماء وأحكام الحكام والأمراء، بل أصبح من الناس من

يتعرض للمقاهي بالتكسير ولأصحابها بالضرب احتسابا للأجر، ومن ذلك ما حدث في مصر حين أفتى الشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد الحق السنباطي بتحريمها، يقول الجزيري: «ثم في سنة إحدى وأربعين تعرضوا للشيخ في مجلس وعظه بذكر القهوة، فأفتى بحرمتها وصمم على ذلك في مجالسه بالجامع الأزهر، فتعصب جماعة من العوام لما سمعوا ذلك منه وخرجوا إلى بيوتها من تلقاء أنفسهم من غير أمر حاكم بل لمجرد الخصلات العامية، فكسروا أوانيها وضربوا جماعة ممن هناك»[17].

لم يكن لتبرئة القهوة من أن تكون شرابا مسكرا أن تبرئ المقاهي من أن تكون مكانا مشبوها، وإذا كانت المقاهي قد أصبحت مرتعا للسفهاء من القوم وأصبح من يرتادها «عادم نخوة» على حد تعبير الشاعر:

قهوة البن لا تكون حراما
إنها لا تفيد في النفس شهوة
غير أن الذي يجيء بيوتا
هي فيها تدار عادم نخوة[18]

إذا كان ذلك هو ما انتهى إليه أمر المقاهي فإن ما توارثه الناس، وعلى نحو خاص في الجزيرة العربية، من نظرة مشوبة بالريبة لمن يجلسون في المقاهي وتجنب أن يكونوا ممن يرتادونها إنما يعود إلى ذلك التاريخ المريب للمقاهي.

ويبدو لنا أن تلك النظرة التي ربطت بين القهوة وما كانت تمزج به والمقاهي وما كان يحدث فيها وما انبنى على ذلك من مداهمات لبيوت القهوة وتأديب لمرتاديها قد أدى إلى إغلاق بيوت القهوة، سواء كان ذلك بموجب القرارات الرسمية أو بهجران الناس لها تجنبا لوسمهم بما كان يوسم به مرتادوها، وبقي الأمر على ذلك النحو حتى تم التعرف على الشاي في القرن التالي، وشاع شربه بين الناس، وتم افتتاح مواقع لشربه سميت بالمقاهي استعادة لاسم المواقع التي كانت تُشرب فيها القهوة، ولعل ذلك ما يفسر لنا تسمية المواقع التي لا تباع فيها القهوة «المقاهي» أو بلهجة أهل الحجاز «القهاوي» رغم أن الذي يتم تقديمه فيها ليس سوى الشاي والذي انضمت إليه الشيشة بعد ذلك عند التعرف على التبغ.

(5)

أفضى الانحراف بشرب القهوة عن مقاصده وابتذال شربها بعد خلطها بالمسكرات وتحول مجالسها إلى مجالس للهو وخروجها عن مقتضى الآداب العامة إلى إحاطة شرب القهوة بجملة من الضوابط والأعراف والتقاليد التي يتوجب الأخذ بها عند شربها وتوفرها في المجالس التي يتم تداولها فيها، وقد تجلى ذلك على نحو خاص في بيئات البادية التي افتتنت بشرب القهوة غير أنها حرصت على ما يمكن أن يكون إعادة تأهيل لها يتم فيه تطهيرها مما لحق بها في مقاهي المدن من مساوئ، وقد

تحولت بطقس التطهير من شراب لا يقبل على الجلوس في مقاهيه إلا أراذل القوم في المدن إلى مشروب لا يستدير حول «شبة ناره» إلا شيوخ العشائر وفرسانها في البادية.

لم تعد القهوة في البادية ذلك المشروب الذي كان يقبل عليه المتصوفة والزهاد للسهر من أجل العبادة، كما لم تعد ذلك الشراب الذي يتعاطاه بعض العوام من الناس للهو والمتعة، أصبحت القهوة في مجالس البادية سلطة ثقافية لها حقوق

وواجبات تحكم العلاقة بين صاحب الدار والضيف الذي يتم تقديمها له، كما تحكم العلاقة بين من يصبها ومن يتم صبها له، أصبحت القهوة قيمة رمزية، ومن شان أي خروج عن هذه الحقوق التي هي لها أو أي تجاهل لهذه الواجبات التي يجب أن تراعى في مجالسها أو أي تغيير لها أو انحراف عنها أن يعقد صلحا أو يقر سلما أو يشعل حربا.

غير أن صرامة هذه المعايير لم تكن تحول دون أن تصبح القهوة حقلا شعريا ارتكز على ما آلت إليه القهوة باعتبارها ضربا من الكيف، ثم راحت بعد ذلك تتقلب في الأسماء، تتلبس بآنيتها حينا وبأصل نبتتها حينا وحينا بمذاقها وبروح من ينسب إليه اكتشافها، فهي الكيف والبن والفنجان والدلة والمُرّ والبرّية والطبخة والشاذلية، وهذه هي الأسماء التي دار عليها معجم الشعر النبطي، فكان احتفاؤه بها احتفاء بكل ما يتصل بها حتى يغدو الاحتفاء بها، وهي المشروب الوحيد الذي خرجوا به عما عاشوا عليه من اللبن عبر التاريخ، مشروبا متعددا بتعدد أسمائه وصفاته.

وعلى الرغم من أننا لا نكاد نجد فيما وصلنا من الشعر النبطي قصائد في وصف الخمر، كما لا نكاد نجد فيما وصلنا من موروث شفاهي عن البادية ما يمكن أن يكون رواية لقصص السكارى أو نوادرهم، ولا نجد حديثا عن الذم بتعاطي الخمر أو الاشتهار بشربها فيما كانت العرب في البادية يتخذونه وسيلة للذم والهجاء والوصف مما يعتبر من خوارم المروءة، على

الرغم من ذلك كله نجد أن القهوة استطاعت أن تستعيد الذاكرة الجماعية المتوارثة عبر قرون فالتقت في الشعر النبطي عوالم الخمر بمعالم القهوة، فالقهوة خمر كالدم:

إلى انطلق من ثقبته تقل شبراق
أو دم جوف انمزع منه معلوق

كما أنها كالخضاب:

سويت فنجان بعوج الدنانير
خطر على العذرا تمنى خضابه

ولها أثر الخمر، فهي تزيل الهم وتبعث على السرور:

في دلة يطرب لها كل شراب
فنجال منها ينشع القلب طاريه

ولها من النشوة ما يحمل الدهشة لشاربها:

فيلا شربت ابهشت واصحيت وانحاس
حبل السكر واعتذت بالله من ابليس

ويغدو معد القهوة نديما وتغدو رائحتها فضاحة:

إحمس ثلاث يا نديمي على ساق
ريحه على جمر الغضا يفضح السوق

ولا تأخذنا الدهشة بعد ذلك كله إن سميت القهوة خمرا وتركت في نفس شاربها أثرا يجعله، حين يفيق منها، في توق إلى الخمر نفسها:

خـمـر لـيـا مـنـه تـسـاقـى بـالاريـاق

وعـلـيـه مـن صـافـي الـورد مـدلـوق

راعــيــه كــنــه شــارب ريــق تــريــاق

كاس الطرب وسرور من ذاق له ذوق

يحتاج من خمر السكارى ليا فاق

طفل يشف شفاه والعنق مفهوق[19]

ولعل الذي قاد الشاعر محمد بن عبد الله القاضي إلى الغزل في قصيدة أراد لها أن تكون وقفا على وصف القهوة وأفضى إلى خسارته الرهان الذي تمت مراهنته عليه إنما هو حالة الانتشاء بالقهوة والترابط الشرطي بين الخمر والنساء في الذاكرة الشعرية، دون حاجة إلى تلك المرأة التي تشير الروايات إلى أنها مرت أمامه وهو ينشد قصيدته[20].

(6)

والقهوة مشروب ذكوري، ولعل مرد ذلك إلى أنها حين ظهرت ظهرت في مجالس الذكر وهي مجالس يكاد يكون حضورها مقصورا على الرجال، وحين انتشرت بين الناس انتشرت في المقاهي والتي كان مرتادوها الرجال دون النساء والأطفال، وحين انتقلت إلى البادية ارتبطت بمقامات الفروسية والمشيخة وإكرام الضيف ومجالس السمر، وهي مجالس لم يكن شهودها غير الرجال، ولذلك أصبح موقد النار الذي تعد عليه القهوة من مكونات مجالس البدو بكل ما يشتمل عليه من حطب وبن وفناجين ودلال ومحاميس، وظلت عملية تهيئة القهوة عملا من أعمال الرجال فلا يجوز مطلقا أن تقوم المرأة بإعداد القهوة فضلا عن تقديمها للضيوف.

وإذا كانت القهوة قد تجاوزت عارض التحريم فإن بقية من ذلك العارض لا تزال عالقة بها، تظهر حينا في استكراه شرب النساء للقهوة حينا،. وحينا في منع الأطفال من شرب القهوة ونهيهم عن طلب صبها لهم والتأكيد عليهم بأن ذلك «عيب»،

وما كان للقهوة أن تكون عيبا لولا أن النظرة إليها لا تزال تستبطن النظرة القديمة والتي ترى أنها ضرب من الخمر، إن سمح الكبار في السن لأنفسهم بتعاطيه لم يجيزوا هم لأنفسهم أن يأذنوا لأطفالهم بفعل ذلك.

وإذا كانت القهوة قد برئت من خلطها بالمسكرات كما كان يحدث في المقاهي فإن فكرة الخلط والمزج بقيت مستمرة فلا تكاد تُتناول صرفا، بل يضاف إليها ما يمكن أن يضيف إليها شيئا من المذاق أو الرائحة كالسكر والهيل والزعفران والزنجبيل وجوز الطيب والقرنفل والزَّباد والحليب.

(7)

وأخيرا. . هل يمكن لنا أن نعيد الاعتقاد الشعبي الذي يرى أن لخطوط بقية القهوة في الفنجان القدرة على استشراف المستقبل ومعرفة «الطالع» إلى تلك الروح الصوفية التي تتوارى خلف تاريخ التعرف على القهوة وما ارتبطت به بعد ذلك من مجالس الذكر والعبادة والتأمل، وكأنما القدرة على قراءة المستقبل من خلال ما تتركه بقاياها في قعر الفنجان وحوافه من خطوط استشفافٌ لروح الولي الكامن فيها واستنطاق لما يمكن ان يفضي به من أسرار؟

المراجع والإحالات

(1) الجزيري: المصدر السابق - المقدمة - ص 12.

(2) المصدر نفسه - ص 12.

(3) المصدر نفسه - ص 72.

(4) يعيد محمود مفلح البكر تسمية القهوة بالشاذلية إلى الشيخ أبو بكر العيدروس أحد أتباع الطريقة الشاذلية ويقول: «لقد قيض الله لهذا المشروب في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري شخصية طريفة ومؤثرة هو المتصوف اليمني أبو بكر بن عبد الله العيدروس الشاذلي الطريقة الذي كان يجتمع حوله مريدون كثر وعابرو سبيل».... وأشار إلى ما تركته تلك النسبة من أثر لدى البدو: «وأصبح من عادة البدوي عند خمس البن أن ينذر الطبخة تلط لروح الشاذلي وأرواح أمواته وأجاويد الله عامة.... وبعد أن يعد البدوي قهوته يسكب الفنجان الأول في النفيلة إكراما لروح الشاذلي» القهوة العربية في الموروث والأدب الشعبي - ص 214-216.

وقد احتفى الشاعر محمد الثبيتي بتسمية القهوة الشاذلية في مطلع قصيدته تغريبة القوافل والمطر حين قال:

أدر مهجة الصبح

صب لنا وطنا في الكؤوس

يدير الرؤوس

وزدنا من الشاذلية حتى تفيء السحابة

أدر مهجة الصبح

واسكب على قلل القوم قهوتك المرة المستطابة

(ديوان التضاريس - قصيدة تغريبة القوافل والمطر)

(5) الجزيري : المصدر السابق- ص 143.

(6) المصدر نفسه - ص 148.

(7) يقول تركي بن حميد:

قم سوْ فنجال حلو ومُرا
رسمٍ لياجوك النشامى هَلَ الكيف

ويقول:

وبهارها عشرٍ بليّا دنافيس
كيف يعدّا للنشامى القرومي

(8) قال الجزيري في معرض دفاعه عن إدارة القهوة باليمين : .. وجاءت السنة باستمرار ذلك، لأنه صلى الله عليه وسلم شرب لبنا وعلى يمينه إعرابي فناوله فضله دون غيره ممن كان هناك عن يساره من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وقال : الأيمن فالأيمن .

عمدة الصفوة - ص 203

(9) يقول باكثير:

هلا بصافي قهوة كالإثمد
جليت فزانت بالخمار الأسود

لما أديرت في كؤوس لجينه
بيمين ساق كالقضيب الأملد

يحكي بياض إنائها وسوادها
طرفا كحيلا لا بكحل المرود

ويقول السيوطي:

أسقنا من يديك قهوة بن
وأدرها ممزوجة برضابك

لا تـحـكـم سـوى كـؤوسـك فـيـنـا
أنـت كـفـؤ ونـحـن مـن خـطـابـك

ويقول أحد الشعراء :

عـرج عـلـى الـقـهـوة فـي حـانـهـا
فـالـلـطـف قـد حـلّ بـنـدمـانـهـا
فـــإنـــه لا هـــم يـــبـــقـــى إذا
قـابـلـك الـسـاقـي بـفـنـجـانـهـا
لا يـوجـد الـغـم بـحـانـاتـهـا
قـد خـضـع الـهـمُّ لـسـلـطـانـهـا

محمد طاهر الكردي: أدبيات القهوة والشاي - ص96-102.

(10) يقول مدوخ بن ضمنه من مطير:

صـبـه عـلـى الـلـي ربـعـتـه يـدهـلـونـه
لـه ربـعـة مـن راح مـنـهـا حـمـدهـا
وصُبُّه عـلـى الـلـي ربـعـتـه يـحـمـدونـه
مـع دربـه الـخـلـفـة تـضـيـع ولـدهـا
وعَـدُّهْ عـن الـلـي واقـف لـه بـشـونـه
يـمـسـي ويـصـبـح عـارف عـددهـا

(11) الجزيري : المصدر السابق - ص 74

(12) المصدر نفسه - ص 202.

(13) الكردي : المصدر السابق - ص 112.

(14) الجزيري : المصدر السابق - ص 78.

(15) المصدر نفسه - ص 76.

(16) المصدر نفسه - ص 83.

(17) المصدر نفسه - ص 81.

(18) محمود مفلح البكر : المصدر السابق - ص 46.

(19) تم استقاء شواهد الشعر النبطي من كتاب (القهوة العربية في الموروث والأدب الشعبي الذي عقد فيه مؤلفه محمود مفلح البكر فصلا متميزا قارن فيه بين شواهد من الشعر الفصيح والشعر النبطي المنتشر في الجزيرة العربية وبلاد الشام كاشفا عن أوجه التشابه بين شعر الخمريات وأوصاف القهوة عند البدو.

(20) عرف الشاعر محمد القاضي بشعره الذي أوقفه على الغزل، وقيل إن جماعة راهنته على عدد من النوق إن استطاع أن يكتب قصيدة لا يتغزل فيها، وقَبِل الرهان وراح ينشدهم قصيدة يصف فيها القهوة، وحين أوشك على أن ينتهي من إنشادها للجماعة التي راهنته، مرت امرأة من أمام المجلس الذي كانوا مجتمعين فيه، وقيل إنه أوعز للمرأة أن تمر، وعندها لم يستطع الشاعر القاضي أن يقاوم فانحرف بقصيدته من وصف القهوة ليتغزل بتلك المرأة وخسر بذلك الرهان.

خاتمة

سحر الاسم

لم يكن للقهوة أن تمر بما مرت به من مخاض التحليل والتحريم وملابسات الفسح والمنع لو أن الذين اهتدوا إلى نبتتها وتعرفوا على ما تفرزه من مشروب منحوها اسما غير الاسم الذي منحوها إياه، ولم يكن لمن تصدوا لها أن يجدوا لدى فقهاء عصرهم ما يعينهم على اتخاذ ما اتخذوه ضدها، كما لم يكن لمن فتنوا بها وتحمسوا لها أن يبلغوا بأنفسهم غاية الجهد لكي يواجهوا الحجة بالحجة ويقابلوا أدلة التحريم بأدلة التحليل لكي يدفعوا عن القهوة ما لحق بها من شبهة أفضت إلى تنزيلها منزلة المسكر كالخمر والمخدر كالأفيون والحشيش والبنج، لو أنه كان لها غير الاسم الذي حملته فحملت معه أوزاره.

غير أنه لم يكن للقهوة أن تبلغ ما بلغته من مكانة وتغني بما أغنت به من سد احتياج لغاية في النفس تحملها على أن تبحث عما يمكن أن يمنحها شيئا من البهجة والمقدرة على تجاوز أسر الممكن والعبور على ما يوشك أن يكون مستحيلا لو أن القهوة لم تحمل هذا الاسم، ولم يكن للقهوة أن تتحول

إلى مجال دلالي تتهافت إليه عوالم من شعر ومعالم من لغة أيقظتها من ذاكرة الناس وأضابير الكتب فجرت شعرا على ألسنة عشاقها والجالسين في مجالسها لو لم يكن الاسم الذي حملته حمال أوجه كلما قلبه القوم وجدوا لها وجها فيه تتبدى من خلاله معالم وعوالم يوشك أن يطويها التاريخ.

ولم يكن للقهوة أن تعرف بأثرها المتردد بين ما أسموه روحنة مرة ومرقحة مرة أخرى لولا أن الاسم الذي حملته جعل ما تتركه من أثر يحتل بؤرة الاهتمام ويكون موضع الملاحظة، وجعل المنتصرين لها يتلمسونه تلذذا بها كما جعل الناقمين عليها يستشعرونه تأكيدا لحجتهم في رفضها.

ولم يكن للقهوة أن تغري الناس بما أغرتهم به من لهو في مجالسها واختلاط بين الرجال والنساء في الأماكن المعدة لشربها وخلط لها بما هو مسكر لو لم يكن في الاسم الذي حملته ما يمكن له أن يفضي إلى ذلك كله.

حل الشاي بعد القهوة ببرهة من الزمن لا تتجاوز القرن، وتعاطى شربه الخاصة والعامة، اعتبروه في البدء دواء يستشفون بخواصه، وحين شاع شربه تعاطوه باعتباره شزابا يمنح الأنفس بهجة ويذهب عنها الهموم ويفرج عنها الكرب وأداروه في مجالسهم الخاصة والعامة في فناجين على الهيئة التي كانوا يديرون بها القهوة، ورغم ذلك كله لم يثر من اللغط حوله، وهو القادم من أرض الصين، ما أثارته القهوة، ولم يدر حوله من الجدل وهو الغريب المنبت والمنشأ، ما دار حول القهوة .

كانت القهوة كامنة في نبتتها، نبتة برية ومادة بريئة، غير أنها حين استخلصت من شجيرتها وتحولت بما يتم إعدادها به من حرق ومزج بالماء و طبخ منحت اسما لم يكن بريئا براءة شجيرتها في الطبيعة أو مادتها الكامنة في شجيرتها، فهو اسم له حمولاته التاريخية والثقافية، تحف به الشهوات كما تحف به المكاره، اسم عتقته قرون من الرغبة أعقبتها قرون من الرهبة ولم يكن هناك بد من أن تنزع التسمية عن المسمى براءته كما نزع الطبخ والإعداد عنه بريته، وتلبسها بذلك كله تاريخ لم يكن بتاريخها حين لم يكن لها تاريخ قبل ذلك، فنهد المناصرون لها يخسفون عليها ما أرادوا لها من سمات يوغلون بها في عتاقة تنزل تعاطيها منزلة الشعائر، وانتفض المنكرون لها يحيطونها بما شاءوا من شبهات لم يكن لها أن تبرأ منها وقد حملت تاريخ ما تلبسته من تسمية.

وحين كانت البادية تقارن بين القهوة والشاي لتؤكد أن «الشاهي فن ما له قن»، أي إن الشاي أمر طارئ لا قانون له، بينما القهوة ليست طارئة ولذلك فإن لها قوانينها التي ينبغي مراعاتها، فإن تلك المقارنة ليست مقارنة بين مشروبين بقدر ما هي مقارنة استجلبها الاسمان اللذان منحا للمشروبين، وإذا كان كلا المشروبين، في حقيقة الأمر «فن»، وهي كلمة تطلق على ما هو حديث طارئ لم يكن معروفا من قبل، فإن الشاي بقي كما هو أمرا طارئا، بينما لم تعد القهوة، بعد أن تمت تسميتها باسم عريق له تاريخه، أمرا طارئا، بل شيء عريق له من العراقة

ما لاسمه من عراقة، وله من القوانين والضوابط ما يستوجب الأخذ به.

وحين كان بعض المتحفظين على شرب القهوة والآخذين بفتوى تحريمها يقول إنها لو سميت «القِهوة»، بكسرة تحت القاف، جاز شربها، فإنه، على طرافة ما يذهب إليه،حين يقترح تعيير حركة القاف فإنما يقترح تغيير الاسم، بحيث يتحقق التمايز بين المشروب ومسماه بما تشتمل عليه التسمية من تاريخ وأحكام، ويقول، بما يكاد يكون تصريحا، إن التحليل والتحريم إنما هو أمر يتعلق بالتسمية.

التسمية، إذا ما توقفنا عند دلالاتها، لا يتوقف دورها عند التعريف بالمسمى، كما يريد لها من يطلقها أن تكون، بل تتجاوز ذلك لكي تتلبس المسمى فتمنحه ما تبطنه من دلالات ومعان لا يبرأ منها كلما ورد ذكره فيكون له من السمات ما يوحي به الاسم، ومن التاريخ ما يحيل عليه الاسم، ومن الأحكام ما هو متصل بما يتصل به ذلك الاسم.

الاسم ليس مجرد تعريف بالمسمى، بل هو تعيين لهويته، والاسم الذي يبدأ من التعبير عن رؤية من يطلق التسمية ينتهي إلى استحضار كامل تاريخه وتلبيس المسمى بدلالات لم تكن تدور بخلد من أطلق التسمية، ولا يلبث المسمى أن يتلبس بها حتى تصبح من دلالاته وسماته.

الاسم هوية سابقة لوجود الشيء لا تلبث حين تتلبس ما تطلق عليه أن تمحو عنه وجوده السابق لها لتغدو هي هويته المتعينة وهو وجودها المتحقق.

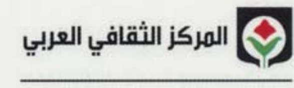
الفهرس



سعيد السريحي

غواية الاسم

وكانت القهوة كامنة في نبتتها، نبتة برية ومادة بريئة، غير أنها حين استخلصت من شجيرتها، وتحولت بما يتم إعدادها به من حرق ومزج بالماء وطبخ منحت اسما، ولم يكن ذلك الاسم بريئا براءة شجيرتها في الطبيعة أو مادتها الكامنة في شجيرتها، فهو اسم له حمولاته التاريخية والثقافية، تحف به الشهوات كما تحف به المكاره، اسم عتقته قرون من الرغبة أعقبتها قرون من الرهبة، ولم يكن هناك بد من أن تنزع التسمية عن المسمى براءته كما ينزع الطبخ والإعداد عنه بريته، وتلبس القهوةَ بذلك كله تاريخٌ لم يكن بتاريخها، فنهد المناصرون لها يخسفون عليها ما أرادوا لها من سمات يوغلون بها في عتاقة تنزل تعاطيها منزلة الشعائر، وانتفض المنكرون لها يحيطونها بما شاءوا من شبهات لم يكن لها أن تبرأ منها وقد حملت تاريخ ما تلبسته من تسمية.



الدار البيضاء - بيروت



النادي الأدبي بالرياض

